

محمّد محمود محمد طه
يَدْعُو إِلَى



شريعة
الأحوال الشخصية

الطبعة الثالثة
١٢٩٩هـ - ١٤١٧م

فهرست

رقم الصفحة

٢	الاهـداء
٣	مقدمة الطبعة الثانية
٦	مقدمة الطبعة الاولى
١٣	توطئة البحث
١٦	نشأة الضمير
١٨	نشأة الاسلام الخاص
١٩	نشأة المجتمع
٢٣	بين الفرد والمجتمع
٢٥	قانون الغاية
٢٩	قانون الانسان
٣٤	المجتمع العبودي
٣٥	المرأة
٤١	آيات الاصول وآيات الفروع
٤٤	الوصاية
٤٩	الاسلام والسلام
٥١	الدستور الاسلامي
٥٣	المساواة بين الرجال والنساء
٥٥	المرأة مكانها البيت
	الزواج
٥٩	الزواج في الحقيقة
٦٤	الزواج في الشريعة
٦٧	الزواج في شريعة الاصول
٦٨	الزواج في شريعة الفروع
٧٢	تداخل الشريعتين وانفتاحهما على بعضهما
٧٥	الطلاق
٧٦	تمدد الزوجات
٧٨	التفقة
٨٠	خاتمة
٨٩	وصيتي للرجال
٩٣	وصيتي للنساء
٩٤	وعـد

الاهداء

الى اكبر من استضعف في الأرض ،

ولا يزال . .

الى النساء . .

ثم الى سواد الرجال ،

والى الاطفال . .

بشراكم اليوم !! فان موعود الله قد اظلكم .

« ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ،

ونجعلهم الوارثين » . .

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »
صدق الله العظيم

مقدمة الطبعة الثانية

هذه مقدمة الطبعة الثانية من كتاب « تطوير شريعة الاحوال الشخصية » ،
وكانت الطبعة الاولى منه قد صدرت في شهر ذى القعدة من عام ١٣٩١ هـ -
ديسمبر من عام ١٩٧١ م . . . ولقد لقيت اقبالا كبيرا من القراء الكرام ، مما
شجع على اعادة طبعه . .

صدرنا هذه الطبعة بالآية الكريمة : « من عمل صالحا فلنفسه ، ومن اساء
فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » . . ذلك بانها آية تقرر مبدأ المسؤولية . .
والمسؤولية هي الخط الفاصل بين القاصر والرشيد . . فالقاصر حظه منقوص ،
والرشيد حقه كامل - القاصر عليه وصى ، والرشيد وصى نفسه تحت ظل
القانون . . وليس في شريعة الله ظلم ، فما هو الا العدل . . والعدل هو وضع
الاشياء في مواضعها . . العدل هو اعطاء كل ذي حق حقه . . فليس من
العدل معاملة القاصر معاملة الرشيد ، فانه لا يستحقها . . وليس من العدل
ايضا معاملة الرشيد معاملة القاصر ، فانه يستحق افضل منها . . ولقد جاء في
شرع الله ان المرأة على النصف من الرجل . . قال تبارك وتعالى : « يوصيكم
الله في اولادكم ، للذكر مثل حظ الانثيين » . . وقال جل من قائل :
« واستشهدوا شهيدين من رجالكم . . فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ،
من ترضون من الشهداء » ، ان تضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى . .
وليس هذا ظلما ، وانما هو عدل ، ولكنه العدل الذي يناسب القاصر . . هو
العدل الذي يبرره حكم الوقت . . فقد كانت المرأة في القرن السابع قاصرة عن
شأو الرجل ، وليس القصور ضربة لازب عليها ، وانما هو مرحلة تقطع مع الزمن

والصيورة الى الرشد حتم ، مقضى ، بحتمية ملاقاته الله : « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا ، فملاقيه » وليست ملاقاته الله بقطع المسافات ، وانما هي بتقريب صفات العبد من صفات الرب .. وليس الانسان الوارد ذكره هنا هو الرجل وحده ، وانما هو الرجل أو هو المرأة .. والصيورة المحتومة من القصور الى الرشد انما تنفذ في الزمان ، وبمفاذاها يقع ما يسمى بحكم الوقت .. فللقرون السابع « حكم وقت » هو الذى جعل العدل بين الرجال والنساء على الصورة التى جاءت بها شريعة الله ، وللقرون العشرين « حكم وقت » يجعل صورة العدل فى القرن السابع ظلما يبرأ الله منه .. وتنتقل صورة العدل الى المستوى الجديد الذى ضمنه دين الله ، حين قصرت عنه شريعة الله للقرن السابع ، نزولا على مقتضى الحكمة التى اقام الله عليها « حكم الوقت » ..

وفى حين جاء فى شرع الله ان المرأة على النصف من الرجل ، جاء فى دينه ان المرأة مساوية للرجل ، امام القانون .. قال جل من قائل : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة .. والله عزيز حكيم » .. والمعروف هو ما تواضع عليه الناس ، بحسب حكم وقتهم ، بشرط الا يخل بغرض من اغراض الدين .. واغراض الدين محورها تحقيق كرامة الانسان ، من رجل أو امرأة .. والمعروف ، عندنا فى القرن العشرين ، هو ان نعلم المرأة لأعلى الدرجات ، وقد اصبح لدينا منهن الآن الطبيبة ، والقاضية ، والمحامية ، والمهندسة ، والزراعية ، والادارية الخ الخ .. وهذا العرف ، بما يحقق من كرامة الانسان ، فانه لا يعوق اغراض الدين ، وانما يحققها ، ولكنه ، فى نفس الوقت ، ولنفس السبب الذى ذكرنا ، يوجب تحولا جذريا فى امر الحقوق والواجبات التى قام عليها « حكم الوقت » فى القرن السابع .. فجاء من ههنا قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن » .. يعنى لهن من الحقوق مثل الذى عليهن من الواجبات .. فاذ كانت الواجبات التى عليهن ، وينهضن بها ،

مساوية للواجبات التي على الرجال ، وينهضون بها ، فقد أصبح لهن من الحق مثل ما لهم ، لا وكس ولا شطط ..

احب لبناتنا ان يعلمن هذا ، وان يجودن فهمه ، والا يترددن في وصف قصور شريعة القرن السابع (وبخاصه في امر الاسرة) عن شأو القرن العشرين وليكن واضحا في اذهانهن انهن ، حين يفعلن ذلك ، لا ينسبن الظلم ، ولا القصور ، الى الله ، تعالى الله عن ذلك ، وانما ينسبنه « لرجال الدين » الذين يطيب لهم ان يتحدثوا باسم الله ، وهم لا يكادون يفهمون عنه شيئا ، وانما يتحدثون فيها لا يعلمون ، حين يريدون للناس ان يعتقدوا ان كلمة الاسلام الاخيرة في امر التشريع قد قيلت في القرن السابع ..

احب لبناتنا ان يدافعن عن حقوقهن في تشريع الدين ، لا ان ييحثن عن الانصاف في شرائع الغربيين ، فانها لا تحوى لمشاكلهن حولا ، ولا لمشاكل الرجال .. واحب لهن ان يستيقن انهن اولى بالدين ممن يسمون انفسهم « برجال الدين » ممن جمدوا الدين ، وجعلوه قضايا فقهية متحجرة ، لا روح فيها ولا حياة ..

هذا الكتاب - كتاب « تطوير شريعة الاحوال الشخصية » يهذى من جديد لبناتنا ، علهن يجدن فيه قبلة حلول مشاكل المرأة ، ومشاكل الرجل ، على سواء.

بسم الله الرحمن الرحيم

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم

مودة ورحمة ، أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » • •

صدق الله العظيم

مقدمة الكتاب:

هذا كتاب نخرجه للناس عن تطوير شريعة الأحوال الشخصية ، وهو كتاب جديد في بابهِ ، ذلك بأنه يتناول الشريعة السلفية بالتطوير ، فيرتفع بها من نص كان عمدتها في القرن السابع ، حين نزل القرآن ، وشرع التشريع ، الى نص اعتبر يومئذ ، مرجأ الى وقته ، لأنه كان أكبر من ذلك الوقت • • وكنا قد أخرجنا سلفاً صغيراً عن الزواج اسمه : « خطوة نحو الزواج في الاسلام » • • كان يستهدف أمرين اثنين : أولهما حل أزمة الزواج التي تهدد مجتمعنا الحاضر ، وذلك بالغاء مراسيم الزواج التي جرت العادة بترسمها ، وان كان في ترسمها مخالفة للدين • • والأمر الثاني هو تحقيق الكرامة للمرأة العصرية ، في الحدود التي تسمح بها الشريعة السلفية • • ولم تكن ضرورة من أجل تحقيق طرف صالح من هذين الغرضين ، ان نخرج عن الشريعة السلفية • • وان كانت ضرورة أن نخرج عما ألف الناس من هذه الشريعة • • ولما كنا في نطاقها ، في كل ما حسواه : « خطوة نحو الزواج في الاسلام » ، ما كنا نتوقع لهذا الكتيب أن يكون جدلياً • • وانما كنا ننتظر له أن يجد طريقه مهدياً ، وميسراً • • وكنا ننتظر الجدل لهذا الكتاب الذي نخرجه اليوم باسم : « تطوير شريعة الأحوال الشخصية » ذلك بأن فيسه تطويراً للشريعة السلفية ، على هدى أصول الدين ، حتى تستوعب الشريعة

الجديدة طاقات الإنسان المعاصر ، وتحقق اغراض الدين بأكثر مما حققت
الشريعة السلفية . . . ولكننا عندما طرحنا كتيب : « خطوة نحو الزواج في
الاسلام » على القراء ، وأخذنا في شرحه على الناس في ندوات مفتوحات
يحضرها الرجال والنساء ، من عامة المواطنين ، ظهر لنا ان كتاب :
« خطوة . . . » نفسه يثير جدلاً . . . وظهور لنا منه ان الناس يجهلون
شريعة الأحوال الشخصية ، ولا يتابعون اعمال القضاء الشرعى في المحاكم
الشرعية في هذه الشريعة . . . بل ، أسوأ من ذلك ، فانهم لا يهتمون بها ، ولا
يعرفون لها من الحق ، والحرمة ، والأهمية ، بعض ما ينبغى لها . . . ذلك بأنها
أكثر الشرائع ، على الإطلاق ، التصاقاً بكل مواطن ، ومواطنة ، وتأثيراً على
كل طفل ، وطفلة ، من افراد الأمة ، ذلك بأنك تستطيع أن تعيش حياتك ، طالت
أو قصرت ، من غير أن تحتاج القوانين الجنائية ، أو القوانين التجارية ، أو
القوانين التى تنظم التعامل فى الحقوق الخارجة عن حقل عملك ، وعمل من
يهمك أمرهم مباشرة ، ولكنك لا تستطيع أن تعيش حياتك ، طالت أو قصرت ،
من غير أن تحتاج شريعة الأحوال الشخصية . . . ذلك بأنها شريعة تدخل كل
بيت وتؤثر ، تأثيراً مباشراً ومتصلاً ، على كل رجل ، وعلى كل امرأة ، وعلى كل
طفل ، وعلى كل طفلة . . .

لماذا عدم الاهتمام :

ولقد لاحظنا أثناء مناقشتنا لكتيب : « خطوة نحو الزواج في الاسلام »
فى الندوات مع المواطنين ، فى الأحياء المختلفة ، من المدن المختلفة ، وفى بعض
القرى ، أن المثقفين لا يجدون عرجاً من الاعتراف بجهلهم لهذه الشريعة . . .
فى حين أنهم لا يرضون أن تظهر ثغرات فى ثقافتهم العامة من الفلسفات
المعاصرة ، ومن الأفكار الاجتماعية التى تسود عالم اليوم . . . ولعل بعض
السبب فى عدم الاهتمام هذا يعود الى صنيع الاستعمار البريطانى ، الذى

صنعه بهذه الشريعة ، وبرجال هذه الشريعة . .

عندما دخل الاستعمار البريطاني هذه البلاد ، في أخريات القرن التاسع عشر ، وغرة القرن العشرين ، وجد نفسه أمام شعب متعلق بالدين ، سيىء الظن بنوايا العهد الاستعماري الجديد ، كثير الخشية منه على الدين ، فما كان من هذا العهد الجديد الا أن أخذ في تطمين الشعب على عدم التدخل في دينه ، فأعلن غزمه على تسليم أمور دين الشعب الى زعمائه الدينيين والى فقهاءه ، والى قضاته الشرعيين . . فأنشأ المحاكم الشرعية . . وحدد لها اختصاصا لا يتعدى شريعة الأحوال الشخصية . . وجعل تنظيم أحوال الناس المعاشية ، في تعاملهم اليومي ، الى الشريعة الوضعية ، وأقام القضاء المدني بازاء القضاء الشرعى ، وجعله فوقه ، وأعطاه السيادة عليه ، وجعل تنفيذ أحكام القضاء الشرعى في يد القضاة المدنيين . . وكانوا ، في الغالب الأعم ، بريطانيين . . فأوحى هذا الصنيع للشباب الذين أخذوا يتلقون العلم في المعاهد التى أنشئت حديثاً بالبلاد ، على مناهج التعليم الغربى ، أوحى اليهم بثانوية الشريعة الاسلامية عامة ، وبشريعة الاحوال الشخصية بخاصة ، اذا ما قورنت الى القانون المدنى . . وكذلك نشأ عدم الاهتمام بها والانصراف عن الاطلاع عليها . .

ماذا نريد؟؟

ولما اتضح لنا هذا الجهل بشريعة الأحوال الشخصية ، واتضح لنا مدى عدم الاهتمام بها ، آثرنا ان نرجىء اصدار كتاب : « تطوير شريعة الأحوال الشخصية » هذا الذى بين يدي القراء الآن ، ابتغاء أن يجد كتيب : « خطوة نحو الزواج فى الإسلام » الوقت الكافى ليثير الاهتمام بهذه الشريعة ، شديدة الأهمية لجميع المواطنين ، بين جميع المواطنين . . وقد طبع من هذا الكتيب ، فيما دون العام خمس وثلاثون ألف نسخة . . ونوقش فى العاصمة والمدين

الاقليمية • • في ندوات مفتوحة • • في الاندية ، والبيوت ، ووسائل الاعلام المختلفة ، من صحف ، واذاعة ، وتلفزيون • • ولا يزال الطبع جارياً في نسخته لزيادة نشره • • وسيظل نقاشه جارياً في جميع الأوساط التي يتيسر لنا التحرك فيها • • والذي نريده ، من كل أولئك ، هو إثارة الاهتمام بهذه الشريعة ، ونشر الثقافة العامة في تفاصيلها بين الشعب • • ثم تطبيق كتيب : « خطوة نحو الزواج في الاسلام » في جميع مستويات الأمة ، كخطوة انتقالية ضرورية ، تستعد بها الأمة لدخول عهد كرامة الرجل ، وكرامة المرأة ، تلك الكرامة التي يدخرها الاسلام للرجال ، والنساء ، والأطفال ، في جميع مناسبات حياتهم ، وسيظهر هذا جلياً في كتابنا هذا الذي بين يدي القراء — « تطوير شريعة الأحوال الشخصية » • •

• اعتذار

ونحن نرى أن اسم هذا الكتاب : « تطوير شريعة الأحوال الشخصية » بوجب علينا كلمة اعتذار • • فإن عبارة « شريعة الأحوال الشخصية » إنما نشأت في عهد الظلام • • عهد تعطين عمل الشريعة الإسلامية ، فأخذت تقوم بجانب واحد ، وتعطل بجوانب أخرى • • وما أحب أن ألقى اللوم على الاستعمار • • لأن الاستعمار نفسه إنما هو نتيجة لتخلف المسلمين ، ونصولهم عن دينهم — الاستعمار ليس هو المرض ، وإنما هو من أعراض المرض • • والذين يظنون غير ذلك ، فيلقون عليه مسئولية تخلف الاسلام ، والمسلمين ، يخطئون كثيراً ، نتيجة لمطحيثهم في التفكير • • وهم معرضون من ثم لشيء من خيبة الأمل ، غير قليل ، عندما ينظرون ، وقد جلا الاستعمار من أرض العرب ، وأرض المسلمين ، ثم لا يزال العرب ، والمسلمون ،

متخلفين ، يعيدون عن دينهم • • ان السبب الحقيقي لهذا التخلف هو الجهل بالدين ، والانحراف به الى قضايا فقهية متحجرة ، تكبل العقل ، الذي يتخذها منهاجاً لدراسته ، ولا تحرره • •

كيف السبيل الى التحرير ؟؟

السبيل واحد • • لا سبيل غيره • • بعث « لا اله الا الله » قوية ، خلاقة في صدور الرجال ، والنساء ، كعهدنا بها يوم خرجت من منجمها ، في القرن السابع ، في الوسط العربي في مكة ، وما جاورها • • ونحن ، من أجل ذلك ، نبشر بهذا البعث • • وندعو اليه ، في معنى ما نبشر بتطوير الشريعة الإسلامية ، بارتفاعها من النصوص الفرعية الى النصوص الأصلية • • فأما النصوص الفرعية فهي الآيات المدنية التي اعتبرت صاحبة الوقت في القرن السابع • • واعتبرت من ، ثم ، ناسخة للآيات المكية • • وأما النصوص الأصلية فهي هذه الآيات المكية التي اعتبرت يومئذ أكبر من قامة المجتمع • • فلم يقم عليها التشريع • • واعتبرت في حقه منسوخة • • وارجئت الى ان يجيء وقتها • • وعندنا أن وقتها الآن قد جاء بمجيء هذا المجتمع البشري المعقد ، ، الذكي ، ذي الطاقات العلمية ، والفنية ، والثقافية والاجتماعية التي لا يمكن ان تقارن بطاقات مجتمع القرن السابع ، بحال من الأحوال • • ولقد افردنا لهذا الموضوع كتاباً باسم « الرسالة الثانية من الاسلام » يجري الآن في طبعته الرابعة ، ويجداقبالا متزايداً ، وتقهما مطرداً ، من جانب المواطنين • • وسيقوم كتاب « تطوير شريعة الأحوال الشخصية » بسبيل من هذا الفهم الذي خرج لتقعيده كتاب « الرسالة الثانية من الاسلام » • • حتى اذا اتضحت معالم الشريعة الإسلامية المتطورة ، الجديدة ، لم تعد هناك حاجة الى الاسم « شريعة الأحوال الشخصية » • • لأن الشريعة الإسلامية الجديدة ستوجه طاقات المجتمع الجديد ، في سائر وجوه مضطربه — في المنزل ، وفي

المدرسة ، وفي المكتب ، وفي المصنع ، وفي السوق ، وفي الشارع — في منشطه ،
وفي مكرهه ، ففي كل ، متكامل ، وما « شريعة الأحوال الشخصية » الا جزء من
كل ، وان كان جزءا له خطره وقدره ..

ثم ان توضيح مقدرة الشريعة الاسلامية على التطور من مستواها
السلنى فى القرن السابع الى مستوى مجتمع القرن العشرين ، حتى تستوعب
حاجاته ، وتوجه طاقاته ، هو ، فى ذاته ، يكون الدعوة الى الاسلام والى بعث
« لا اله الا الله » من جديد ، لناخذ ، من مستواها الجديد الذى تبعث فيه ،
تشريعنا الجديد ، الذى يوفق فى سياق واحد ، بين حاجة الفرد الى الحرية
الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة . . هذا
التشريع هو التشريع الدستورى الذى لم تظفر البشرية به الى اليوم ، وهو ،
هو ، حاجتها . . لأن به دخولها عهد عدلها ، ورخائها ، وكرامتها ، وسلامتها . .
ومن ههنا تجىء قيمة الاسلام التى لاتجاريه فيها فلسفة اجتماعية من
الفلسفات التى يفتن بها المثقفون عندنا الآن . . ومن ههنا أيضا يجىء نظر
الاسلام ، فى حقيقته ، لا فى شريعته السلفية ، الى المرأة كإنسان ، لا كجنس . .
قال تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » . . وللرجال عليهن درجة » . .
هذا يعنى أن لهن من الحقوق بقدر ما عليهن من الواجبات ، سواء بسواء . .
قوله « بالمعروف » . . يعنى « بالمعروف » ما تواضع عليه المجتمع ، فى
تطوره المستمر نحو كمالاته المبتغاة ، بشرط واحد ، هو الا يكون المعروف
التواضع عليه مخلا بغرض من أغراض الدين . . وأغراض الدين جماعها
تكريم الإنسان ، من رجل وامرأة . . فاذا بلغ تطور المجتمع بالمرأة أن تتولى
المناصب الرفيعة بجدارة فان حقها من الحرية يكون مكافئا لمقدرتها على أداء
هذا الواجب الرفيع . . فاذا كانت تؤديه كما يؤديه الرجل فقد أصبح حقها فى
الحرية مكافئا لحقه فيها . . ذلك لسبب واحد بسيط هو أن واجبها قد كان مكافئا
لواجبه . . تكافأ فى الواجبات ، فأصبح ، من مبادئ العدالة ، أن يتكافأ فى

الحقوق — «الأجر المتساوى للعمل المتساوى» — كما يقال ، فى وقتنا الحاضر
• • • وان كان ما يقال يقتصر على المكافأة المادية فقط • • • «وللرجال عليهن
درجة» لا تعنى ، بالطبع ، ان لطلق رجل درجة على مطلق امرأة • • • بهذا
يؤكدده الواقع المعاش ، والسير الموروثة • • • وبهذا الفهم يفتح طريق مساواة
الرجال والنساء ، فى الحقوق ، والواجبات ، فى تشريعنا الإسلامى الجديد • • •
ولا تقع درجات التفاوت ولا التفاضل الا فى منطقة الأخلاق • • • لا فى منطقة
القانون • • •

توطئة البحث :-

هذا بحث في أصل أصول الدين . . بحث في كرامة الإنسان . . والإنسان هو قمة هرم المملكة . . فان المملكة مكونة هذا :-

في القاعدة الغازات ثم السوائل ، والجملادات . . (بما فيها ، وفي قممتها الطين والماء) ، ثم النباتات ، ثم الحيوانات ، ثم البشر (بنو آدم) ، ثم الإنسان . . قال تعالى في كرامة بنى آدم : « ولقد كرّمنا بنى آدم ، وحملناهم في البر ، والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » . . وبنو آدم ليسوا قمة الخليقة ، وانما هم مرحلة من مراحل تطور الخليقة في المملكة نحو مرتبة الإنسان . . بنو آدم بالنسبة للإنسان كالحيوان بالنسبة لبنى آدم . . وفي حين أن بنى آدم مفضلون على كثير من المخلوقات « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » . . فان الإنسان مفضل على سائر المخلوقات . . وانما من أجل الإنسان خلقت الأكوان ، وما خلق الإنسان الا من أجل الله . . قال تعالى في معنى خلق الأكوان من أجل الانسان « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والأعناب ، ومن كل الثمرات . . ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون * وسخر لكم الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه ، ان ذلك لآية لقوم يذكرون * وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون * والقى فى الأرض رواسب أن تميد بكم ، وأنهاراً ، وسبلاً . . لعلكم تهتدون * وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون » . .

وفي معنى خلق الإنسان من أجله قال تعالى : « وذكر !! فان الذكرى تنفع المؤمنين * وما خلقت الجن ، والإنس ، الا ليعبدون * ما أريد منهم من

رزق ، وما أريد أن يطعموني ﴿ ان الله هو الرزاق ، ذو القسوة المتين ﴾ . .
وقال تعالى في حق موسى « واصطنعتك لنفسى » . . وانما من هذه الآيات ومن
تلك ، قال العارفون عن لسان الحق : « جعلت الأكوان مطية للإنسان ، وجعلت
الإنسان مطية لى » وهو قول يذرع أيضا على الحديث القدسى : « ما وسعنى
أرضى ، ولا سمائى ، وانما وسعنى قلب عبدى المؤمن » . . وعلى الآية
الكريمة : « سنريهم آياتنا ، فى الآفاق ، وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » .
أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟؟ » . . ولم يكن الإنسان غائبا
عن الأكوان ، وانما كان دائما طليعتها ، ورأس سهم تقدمها ، من لدن الغازات
. . ولا يزال التقدم يطرد به ، ولما يبرز لمقام عزه بعد . . قال تعالى عن تقلب
الإنسان فى الصور البدائية ، فى الآماد السحيقة : « هل أتى على الإنسان حين
من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟؟ » * انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ،
نبتلينه ، فجعلناه سميعا بصيرا * انا هديناه السبيل : اما شاكرآ ، واما
كفورآ » وقوله « هل » هنا تعنى (قد) . . قد أتى على الإنسان دهر دهر
لم يكن فيه مذكورا فى ملكوت الله ، لأنه لم يكن ، خلال هذا الدهر الدهير ،
يتمتع بعقل التكليف . . وانما من ههنا سقط ذكره — « لم يكن شيئا مذكورا »
. . وهذا الدهر الدهير يوقت تقلبه فى الصور الدنيا ، من أسفل سافلين حيث
رد ، صاعدا الى أحسن تقويم حيث خلق . . قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان
فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين » و « أسفل سافلين » هذه هى
نقطة أدنى صور تجسيد المادة . . وتسخير الأكوان له انما معناه اعانته فى
سيره هذا الطويل من منفاه فى البعد الى مقامه فى القرب عند الله . . كل شيء
سخر لهذه الغاية . . ابليس ، وذريته ، والملائكة الأطهار ، والرسل ، والكتب ،
والشرائع ، والقرآن بصورة خاصة . . ذلك بأن طريق الرجعى به قد بين
أحسن تبين . . وهو بصورته التى بين دفتى المصحف قد نزل مؤخرا على
خاتم النبيين ، ولكنه ، فى حقيقته ، ما بدأ نزوله ، ولا انقطع نزوله ، وانما هو

مستمر النزول ، ولن ينفك .. هو في صورته التي بين دفتي المصحف قد نزل ليوجه تطور البشرية نحو الانسانية — ليستخلص الإنسان من البشر .. . وليرسم طريق رجعتة الى وطنه الذي قد طال اغترابه عنه .. . انظر كيف تحكى هذه الآيات الكريمات بداية هذا الطريق ، ونهايته : «حم * والكتاب المبين * انا جعلناه قرآناً عربياً ، لعلمكم تعقلون * وانه ، في أم الكتاب لدينا ، لعلى حكيم » .. عبارة «لدينا» تعنى عند الذات ، حيث لا عند .. وهذه تمثل خط السير في المطلق .. والآية : « انا جعلناه قرآناً عربياً ، لعلمكم تعقلون » ، تحكى طرف هذا الطريق الذى لامس أرض الناس ، حيث قامت الشريعة لتنظيم حياة الأفراد ، من رجال ، ونساء ، تنظيماً يوفق توفيقاً دقيقاً ، ومتساوياً بين حاجة الفرد من رجل ، وامرأة ، الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ..

هذا هو المحك :-

والمقدرة على التوفيق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة ، هي القمة التي تظهر قصور الفلسفات الاجتماعية المعاصرات .. مع أن هذه الفلسفات هي قمة ما وصل اليه الفكر البشرى الى اليوم .. ويمعنا من هذه الفلسفات الاجتماعية المعاصرات الماركسية ، والديمقراطية الغربية .. وما ذاك الا لما كان نفوذهما ، واستيلائهما على تنظيم المجتمع البشرى المعاصر ، في الشرق ، وفي الغرب .. . لقد تفرد الاسلام عن هاتين الفلسفتين بهذه المقدرة الدقيقة الفريدة — المقدرة على التوفيق بين حاجة الفرد وحاجة الجماعة — ويرجع الفضل الأساسى في تفرد الاسلام بهذه المقدرة الى أن شريعته تقع في مستويين : مستوى الفرد ، ومستوى الجماعة .. فاما شريعته في مستوى الفرد فتعرف بشريعة العبادات ، وتعنى ، في المكان الأول ، بانشاء ، وتنظيم العلاقة بين الفرد والرب .. وتتجه

الى ايقاظ الضمير ، وتركز فيه الايمان بأن الله ، يلاحظه ، ويراقبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من خفايا الأسرار .. « وأنذرهم يوم الآزفة ، اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين .. ما للظالمين من حميم ، ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء .. ان الله هو السميع البصير » ..

وأما شريعته في مستوى الجماعة فتسمى شريعة المعاملات ، وتعنى بانثشاء ، وتنظيم ، العلاقة بين الفرد والفرد .. والشريعتان متكاملتان ، ومتداخلتان ، ومؤثرتان ، ومتأثرتان ببعضهما ، على نحو ما تؤثر الجماعة في الفرد ، وتتأثر به .. والتعليم المركوز ، والثابت ، في أصول الدين ، أن الله غنى عن عبادة العباد .. فلم يبق الا أن العباد هم المحتاجون الى العبادة .. ومعنى هذا أن العبادة التى تتجه الى ايقاظ الضمير ، وبعثه ، وتقويمه ، انما مرادها اكساب الفرد المقدرة على حسن التصرف فى سلوكه فى الجماعة ، فأنه ، حين يستعين بالعبادة على المقدرة على حسن التصرف فى السلوك فى الجماعة ، ينجو من طائفة قوانين المعاملة ، ويستمتع ، بفضل هذه المقدرة ، بالحرية من الخوف من وصول عقوبة القوانين اليه ، وبذلك يحرز كرامته كإنسان ، ليس عليه من رقيب الا ضميره المنفتح على الله ، والمراقب له ، فيما يأتى وما يدع ..

نشأة الضمير :

ولم تكن نشأة الضمير البشرى أمرا هينا ، ولا ميسورا .. ولقد استغرق حقبة طويلة من الزمن ، بدايتها تؤرخ ارتفاع الانسان المعاصر عن مرتبة الحيوان .. ولقد تولى الاسلام بدء هذه النشأة ، وظل يرعاها ، وينميتها ، ويوجه مصيرها الى يوم الناس هذا .. ولكن الناس لا يعلمون هذا لانهم انما يظنون أن الاسلام جاء به محمد ، النبى الأمى ، فى القرن السابع ، حين نزل

القرآن باللغة العربية ، في شعاب مكة .. فان وجدت منهم عالما فقد يخبرك أن الإسلام قد جاء به الانبياء ، فمن لدن آدم .. والحق أبعد من ذلك .. فان الإسلام ، في عموم معناه ، هو الارادة الالهية التي سيرت المملكة ، في جميع مستوياتها ، تسييرا قاهرا ، ومهتديا .. يقول تعالى في ذلك « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات ، والأرض ، طوعا ، وكرها ، واليه يرجعون ؟! » هذا هو دين الإسلام العام .. وعنه لا يخرج خارج ، ولا يشذ شاذ .. وفيه لا تقع المعصية .. فمن عصى فيه فقد أطاع ، في معنى ما قد عصى .. وهذا الإسلام قد سير المادة الصماء تسييرا قاهرا ، فأسلمت وجهها « كرها » الى أن استخرج من المادة الصماء المسادة الحية — من المادة غير العضوية استخرج المادة العضوية ، كما يعبر علماء الاحياء عندنا الآن .. ثم ان هذا الإسلام العام قد واصل توجيهه للمادة غير العضوية ، وللمادة العضوية ، على اختلاف في مستويات هذا التوجيه ، فدخل اعتبار اللذة ، ودخل اعتبار الألم ، في منطقة المادة العضوية — الحياة — فأصبحت الحياة تطيع توجيه اللذة « طوعا » وتطيع توجيه الألم « كرها » .. وهذا وذاك معنى قوله تعالى ، في هذه المرحلة من مراحل المملكة : « وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها » .. ثم ان هذا الدين الاسلامي العام قد واصل توجيهه بعد بروز الحياة الى أن برز العقل .. وبرز العقل برز الدين الاسلامي الخاص .. ويؤرخ بروزه بروز شريعة الحلال والحرام .. وهذه شريعة سابقة لعقيدة التوحيد ، وهي شريعة لم يفتزعها آدم أبو البشرية المعاصرة ، وأول الرسل المذكورين عندنا في القرآن ، وانما جاءت بها رسل قبله ، ممن لم يرد ذكرهم بصريح العبارة ، وان وردوا في مضمون الاشارة .. قال تعالى في ذلك : « واذا قال ربك للملائكة : اني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ؟! قال : اني أعلم ما لا تعلمون » . والاشارة هنا مضمنة في اعتراض الملائكة حين قالوا :

« أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ؟؟ » فانما كان اعتراضهم هذا ثمرة ممارستهم لتجارب بشرية فاشلة انة رُضت بسبب فشلها .. وكانت هي مقدمة للتجربة البشرية الناجحة ، الحاضرة ، والتي جاء طليعتها بدين الاسلام الخاص ، في مرحلة التوحيد .. والى هذا اشارة المعصوم بقوله : « خير ما جئت به ، أنا والنبليون من قبلى ، لا اله الا الله » .. واليه أيضا اشارة بقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى ، وعيسى : أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه : كبر على المشركين ما تدعوهم اليه .. الله يجتبي اليه من يشاء ، ويهدي اليه من ينيب » .. فان « شرع لكم من الدين » ههنا تعنى التوحيد ، ولا تعنى التشريع — تعنى « لا اله الا الله » .. وانما من هذه الآية جاء قول المعصوم الذى سلفت اليه الاشارة ، قبل قليل ..

نشأة الاسلام الخاص :

في حين أن الارادة الالهية القاهرة هي دين الاسلام العام ، فان الرضا الالهى اللطيف هو دين الاسلام الخاص .. فانه لمن دقائق العلم بالله أنه أراد شيئاً ولم يرضه .. فهو قد أراد الشر ، ولكنه لا يرضى الا الخير .. قال تعالى في ذلك : « ان تكفروا فان الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وان تشكروا يرضه لكم » .. فهو يقول : « ان تكفروا فان الله غنى عنكم » ، ومعنى هذا أنكم لم تكفروا مغالبة له ، وانما كفرتم بارادته .. وهذا يؤخذ من معنى الاسم « الغنى » .. فان « الغنى » هو الذى لا يغلب .. فهو في هذه يريد الشر ، ولكنه لا يرضى الا الخير .. والله يريد بذاته ، ويرضى بذاته ، في تنزل ، ولكن الرضا في تنزله أقرب الى الذات من الارادة في تنزلها .. والذات وحدة مطلقة .. وهى ، في ذلك ، خير مطلق .. فمنزلة الرضا منزلة خير ، الشر فيها غائب .. ومنزلة الارادة منزلة خير الشر فيها أكثر منه في منزلة الرضا ..

وقد أرسل الله الرسل ليعينوا العقول لتخرج مما أراده الله .. الى ما يرضاه الله .. فان العقول هي مصافي الرضا من الارادة .. ويمكن تشبيه الارادة بماء المحيطات الملح ، ويمكن تشبيه الرضا بماء الأنهار العذب .. وتوسط حرارة الشمس في استخراج الماء العذب من الماء الملح كتوسط العقول البشرية في استخراج الرضا من الارادة . وانما شرع الحرام والحلال ليروض العقول على القدرة على التمييز بين الخير والشر - بين ما يريد الله وما يرضاه

غشاة المجتمع :

الاختلاف بين دين الاسلام العام ودين الاسلام الخاص اختلاف مقدار ، ومن أجل ذلك فان عقيدة التوحيد قد جاءت متأخرة عن بداية ظهور دين الاسلام الخاص .. لقد كانت بداية الظهور بظهور شريعة الحرام والحلال ، في مستوياتها البسيطة .. ثم ، بعد تطور طويل ، ظهرت عقيدة التوحيد من عقائد التعدد ، وبذلك ظهرت الكلمة « لا اله الا الله » .. وبظهورها بدأت ديانات التوحيد ، في بعض بقاع الأرض ، جنبا الى جنب مع بقايا ديانات التعدد .. وأول من جاء بكلمة التوحيد آدم ، أبو البشر المعاصرين .. ويمكن أن يستفاد هذا الفهم من التجربة الفردية للعباد المجودين .. وفي قصة ابراهيم الخليل نموذج طيب لهذا الترقى الى مرتبة التوحيد .. يقول تعالى ، في حكاية ذلك « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا .. قال : هذا ربي .. فلما أفل قال : لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا ، قال : هذا ربي ، فلما أفل قال : لنن لم يهدهنى ربي لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربي ، هذا أكبر .. فلما أفلت قال : يا قومى !! انى برىء مما تشركون * انى وجهت وجهى للذى فطر السموات ، والأرض ، حنيئا .. وما أنا من المشركين * » .. هذه صورة للانتقال في العقيدة من الخلق الى الخالق .. ومن التعدد الى التوحيد .. جاءت على لسان رجل هو أكبر الانبياء ، ما خلا نبينا .. وهناك صورة تحكى على لسانه لتدل على اطراد نموه في العقيدة ، في

داخل التوحيد ، يترقى من الايمان الى الايقان .. قال تعالى فيها : « واذ قال ابراهيم ربي ارنى كيف تحيي الموت !! قال : اولم تؤمن ؟ قال : بلى !! ولكن ليطمئن قلبي .. قال : فخذ أربعة من الطير ، نصرهن اليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن ، يأتينك سعيا .. واعلم ان الله عزيز حكيم » .. وزمان ظهور ابراهيم الخليل متأخر عن زمن نشوء المجتمع ، بما لا يقاس ، وما أوردناه الا لندلل على أن عقيدة التوحيد قد جاءت متأخرة كثيرا عن نشأة المجتمع .. وفي حين أن المجتمع يمكن أن ينشأ بدون عقيدة التوحيد ، فإنه لا يمكن أن ينشأ بدون شريعة الحلال والحرام .. ولا تقوم شريعة الحلال والحرام الا على عقيدة .. وقد كانت هذه التي نشأت عليها شريعة الحرام والحلال البدائية عقيدة تعدد .. وهى ، فى وقتها ، قد كانت مرادة من الله ، ومرضية .. وهذا يعنى أن بداية عقيدة التوحيد قد نشأت فى الأرض ، فى مضمار مرحلة الانتقال المشتركة بين دين الاسلام العام ، ودين الاسلام الخاص .. وقد اعتقد البشر ، فى مرحلة الانتقال هذه ، فى الالهة المتعددة .. وكان لكل أسرة اله ، بل قد كان لكل فرد ، من أفراد الأسرة ، اله .. وكان آلهة صغار الأسرة يخضعون لاله كبيرها ، تماما كما يخضع صغار الاسرة لكبيرها .. ثم ان آلهة الاسر الصغيرة قد كانت تخضع لاله الأسرة الكبيرة .. وحين تنشأ الحروب بين قبيلتين من القبائل البدائية ، وتنهزم فيها قبيلة أمام قبيلة ، وتخضع لها ، فإن آلهة القبيلة المغلوبة قد يخضعون لآلهة القبيلة الغالبة .. هذا يجرى فى أغلب الأحيان ، وبجريانه تقل أهمية آلهة كانوا ، قبلا ، معبودين ، ومقدسين .. ومع قلة أهميتهم يبدأ سقوطهم .. واختفاؤهم .. وتتحول عبادتهم لآلهة أكبر منهم ، هم ، فى الغالب الأعم ، آلهة الأقوياء والمطاعين من كبراء القبائل .. وهكذا دواليك .. هذه الصورة تعطى حركة التطور ، نحو توحيد الآلهة ، كنتيجة للصراع الذى به توجه الإرادة الهادية (التى سميناهم دين الاسلام العام) سير البشر من التعدد الى

الوحدة .. فكان بدايات التوحيد نشأت في مضمار دين الإسلام العام ، ولكن اكتمالها ، بمجىء الكلمة « لا اله الا الله » ، قد كان نتيجة قفزة تمثلت في الماشية السماء بالأرض فيما سمي « بالوحي » ، وهو اتصال الملك بالبشر ليوحى اليه تعليما معينا في تأكيد التوحيد ، وفي التسامي به عما كان عليه الأمر من قبل في الأرض ، وفي توجيه التشريع الذي كان قد نشأ في الأرض قبيل عقيدة التوحيد الموحدة من السماء .. هذا يسوقنا ، في استطراد بسيط ، الى تصحيح خطأ شائع ، وهو الزعم بأن الدين قد نزل من السماء .. والحق أن الدين نبت في الأرض ، وألت به أسباب السماء ، فهذبته ، ونقته ، ووجهته .. في تسام مقصود به أن تلحق الأرض بأسباب السماء ، فان رب الأرض ، ورب السماء واحد .. قال تعالى : « وهو الذي في السماء اله ، وفي الأرض اله ، وهو الحكيم العليم » ..

فأله الأرض ، اله الإرادة .. وأله السماء ، اله الرضا .. اله الأرض الرحمن ، وأله السماء الله .. وانما هما اله واحد : « قل ادعوا الله ، أو ادعوا الرحمن ، أياً ما تدعوا فله الاسماء الحسنى » .. ولا تجهر بصلاتك ، ولا تخافت بها .. وأبتغ بين ذلك سبيلا » ، وأنما ، من ههنا ، قررنا أن دين الإسلام العام هو الإرادة ، ودين الإسلام الخاص هو الرضا .. وقررنا أن مهمة الوحي هي استخلاص الرضا من الإرادة بواسطة العقول البشرية المؤدبة بأدب السماء .. فان مثل الدين مثل النبات ، ينبت في الأرض ، بتفاعل أسباب السماء معها .. ومثل الأنبياء ، مثل الفلاح يبذر البذرة في الحقل ، فينبت القمح ، والحشائش معا ، فيجىء هذا الفلاح ، فيلتقط الحشائش ، ويترك القمح لينمو ويستحصد تحت رعايته ، وكلاءته .. وكذلك الأنبياء ، فانهم يجدون العادات ، والتقاليد ، سالحة ، وفاسدها ، مختلطة في عقول ، وفي معيشة أممهم .. وهم ، بما أعدوا به من أدب السماء ، يميزون بين العادات الضارة ، والعادات الحسنة ، كما يميز الفلاح بين نبات القمح ، والحشائش الضارة ، فيجتثون العادات

الضارة ، وينمون العادات الحسنة .. وهذا هو السر في كثرة ورود كلمة « المعروف » في القرآن ، فإن المعروف هو ما تواضع عليه الناس ، بشرط ألا يكون معوقا لغرض من أغراض الدين ، وجماع أغراض الدين تحقيق كرامة الإنسان .. قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول ، النبي ، الأمي ، الذي يجدونه مكتوبا عندهم ، في التوراة ، والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم أصرهم ، والأغلال التي كانت عليهم .. فالذين آمنوا به ، وعزروه ، ونصروه ، وأتبعوا النور الذي أنزل معه ، أولئك هم المفلحون » ..

فالدين نشأ في الأرض ، وأملت به اسباب السماء فهذبته ..
والإنسان حيوان متطور ، وأما جاءت مقدرته على التطور من مقدرته على التخيل — تخيل صور الأشياء المقبلة .. وهذه المقدرة على التخيل قد أعانته على انشاء المجتمع ، فانه ، من جهة الحيوان ، قد ورث غريزة القطيع ، وهي غريزة تشده الى الجماعة شدا ، وورث أيضا الغيرة على انثاه ، وهي غريزة تثير العداء بين ذكور القطيع ، وتعمل عملها في التفريق .. فان الأطفال الذكور ، حين يبلغون مبلغ النضج ، يطردون كنتيجة لهذه الغريزة ، من الحظيرة ، أو ، اذا ضعف آباؤهم ، قد يطرد الأبناء الآباء .. والنتيجة واحدة ، هي تفتيت المجتمع .. ولقد خلق الانسان موزون القوى ، فلامه بالقوى الذي يحل مشاكله بعضلاته ، ولا هو بالخائر ، المتهالك ، الذي لا يناجز ، ولا ينهض للعداوة .. وقد أعانه هذا الوضع الموزون على تفتيق حيلته ، ونمو عقله ، ومن هنا امتدى الى المواعمة بين حياته وبين بيئته بكفاءة ، وبأقترار عجز عن مداها سائر الحيوانات .. وعن هذه المواعمة نشأ الدين ، ونشأ العلم ، ونشأ المجتمع .. ولن نتحدث هنا بتوسع عن هذه النشأة لأننا قد تحدثنا ، بشيء قليل من التبسيط ، عنها في كتابنا : « رسالة الصلاة » ، في مقدمة الطبعة الرابعة في صفحة ٣٣ من الطبعة الخامسة ، تحت عنوان « الدين قبيل آدم ».

فليراجع في موضعه ..

ولكننا هنا نقرر : أن المجتمع لم يكن لينشأ الا على حساب الأفراد وذلك بتقييد نزواتهم وشهواتهم ، واندغاعاتهم الفردية .. ومن ههنا ، ومن أجل هذا التقييد نشأ العرف ، وقامت العادة ، التي تعتبر جرثومة القوانين الحاضرة .. ومع أن المجتمعات الصغيرة ، البدائية ، كانت تختلف في اعرافها ، وعاداتها ، الا أنه يمكن القول بأن الغريزة الجنسية قد كانت هي مدار التقييد ، يليها ، في ذلك في الأهمية ، حب التملك .. ولقد نشأ العرف الذي يحرم الأخت على أخيها ، والام على ابنها ، والبنت على أبيها ، في بداءة نشأة القوانين .. ولقد انصب أعنف الكبت على هذه الغريزة وقيدت أشد القيد لمصلحة نشأة المجتمع ، فأصبح الأب مطمئنا على زوجته من ابنائها ، وأصبح الابن مطمئنا على زوجته من أبيه ، وأصبح الصهر مطمئنا كذلك على زوجته من أخيها ، ومن أبيها .. ومثل هذا يقال في احترام الملكية .. ومن هذه القيود المضروبة على الأفراد أصبح المجتمع ممكنا ، وأخذ بداياته في الماضي السحيق .. وهذا الكبت المبكر للشهوة الجنسية ، وشهوة التملك ، هو الذي يفسر السر في أشد التشريعات الإسلامية انضباطا ، وتلك هي شريعة الحدود .. فان الحدود أربعة .. ترجع الى أصليين : حفظ العرض ، وحفظ المال .. فحد الزنا ، وحد القذف ، يقومان على ضرورة حفظ العرض .. وحد السرقة ، وحد قطع الطريق ، يقومان على ضرورة حفظ المال .. ولا يجوز ذكر حد الخمر ، وهو الحد الخامس ، في هذا المقام ، لأنه ليس في مستوى هذه الحدود توكيدا ، وانضباطا .. ومعلوم أن الحدود تسمى حق الله ، وأنها ، بخلاف القصاص ، لا يستطيع أحد — لا ، ولا الرسول الكريم — ان يعفو عن الحد ، من قام به الحد ..

بين الفرد والمجتمع :

غنى عن القول أن نشأة المجتمع قد استغرقت عهدا طويلا ، طويلا ، بلغ

خلاله عنف الجماعة بالأفراد المنحرفين ، عن العرف والعادة ، مبلغا رهيبا ..
فقد كان الأفراد غلاظا ، شكسين ، صعبى المراس .. وكان ترويضهم وتأديبهم ،
يحتاج الى عنف عنيف .. وكانت عقوبة القتل توقع على ابسط المخالفات ، الى
جانب التعذيب والتمثيل ، والتشويه ، فلم تكن يد السارق تقطع كما هى عندنا
فى شريعتنا الآن ، وانما كانت تقطع رقبته .. ثم خفف عليه فى الأمد الطويل ،
فاستؤصل بعضه بدلا من كله .. وكذلك جاءت شريعة قطع اليد .. هذا على
مسيل المثال .. الغريب فى الأمر ان هذا العنف العنيف بالأفراد لم يكن ليضحي
بهم فى سبيل الجماعة ، وانما كان يوفق بين حاجتهم ، وحاجة الجماعة ..
ولاغرو فى ذلك ، فان القوانين ، منذ ان نشأت فى صور العادات والأعراف
البدائية ، قد كانت شريعة اسلامية ، تقسم بالعدل ، وتوجهها الحكمة .. ولكنها
انما كانت شريعة اسلامية فى نطاق الدين الاسلامى العام .. وقد قلنا ان هذا
يعنى الارادة الالهية .. والقاعدة التشريعية الأم فيه تقوم على قوله تعالى :
« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .. وهذه
القاعدة الأم فى الدين العام تقابلها فى الدين الخاص قاعدة ، مأخوذة منها ،
وموازية لها ، تقول : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ،
والأنف بالأنف ، والاذن بالاذن ، والسن بالسن ، والجروح قصاص ، فمن
تصدق به فهو كفارة له .. ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون »
ولقد خدم العنف العنيف بالأفراد ، هؤلاء الافراد ، لأن به قويت ارادتهم
على السيطرة على شهواتهم ، فساروا فى طريق الإنسان ، بعد أن كانوا
مسترسلين فى طريق الحيوان السائم .. ومع قوة الارادة بدأت الأخلاق ،
وبرز العقل .. وما كان له ان يبرز لولا الخوف الذى سار فى ركاب العنف ..
ولقد خدم الدين غرضه فى ايقاظ الضمير منذ هذا العهد السحيق .. فانه قد
تركز فى نفوس الأفراد ان عمل الشر ، الذى يخالف عادات واعراف ومصالح
المجتمع الذى يعيشون فيه ، يغضب آلهة الخير ، ويرضى آلهة الشر ، فيستحوذ

آلهة الشر على فاعلى الشر ، ويدخلونهم باستحوادهم عليهم ، بعد مهماتهم ، في ظلمات مطبقة من عذاب رهيب .. وبين الخوف من القانون ، والخوف من الآلهة ، بدأ يتهدب الفرد ، وتقوى سيطرته على نزواته ، وبدأت بذلك أصول الأخلاق .. فكان هذه الأعراف والعادات البدائية ، منذ الوهلة الأولى ، قد وفقت بين حاجة الفرد الى الحرية ، وحاجة المجتمع الى العدل .. بيد أنها حرية في أول السلم ، وعدل في أول السلم أيضا .. وليس الاختلاف بين حاجة الفرد المعاصر ، والمجتمع المعاصر ، وحاجة الفرد يومئذ ، والمجتمع يومئذ ، إلا اختلاف مقدار .. فنحن اليوم ، في أخريات القرن العشرين ، نتحدث عن حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة .. وفي الحق أن هذه هي حاجتهما منذ بدءا نشأة ، ولكن الفرصة لم تنهيا لتحقيق هذه الحاجة الا في الآونة الأخيرة ، وانما كانت حياة المجتمع ، وحياة الأفراد ، في الحقب السوالف مقدمة طبيعية للعصر الحاضر .. ولم تكن التضحيات السوالف الاثنا طبيعيا لمهد الكرامة الذي أخذ الانسان يستشرفه اليوم .. فكان دستورية القوانين التي نتحدث عنها في الوقت الأخير ، ونقول عنها أنها هي القوانين التي لا تضحي بمصلحة الفرد في سبيل الجماعة ، ولا بمصلحة الجماعة في سبيل الفرد ، قد أخذت أصولها من تلك البدايات البسيطة غداة نشأة المجتمع .

قانون الغابة :

نقد نشأ المجتمع البشرى في الغابة .. وورث مخلفاتها .. وهي مخلفات لا يزال يعيش أخرياتها .. والقاعدة العامة فيها أن القوة تصنع الحق .. فللقوى حبق طبيعى على الضعيف .. يستحقه لجرد قوته .. ويتقاضاه بقوته .. فالقوة تصنع الحق ، وتتقاضى الحق .. تلك شريعة الحيوانات .. ولا تزال ، نحن البشر ، حتى في أخريات القرن العشرين ، نعتقد هذا ، ونعمل

به .. اكثر من هذا ، فأننا في المجتمعات البدائية نفخر به .. فان هناك من أغانينا ، نحن السودانيين ، أغنية تمدح فيها فتاة أخاها فتقول : — « صار عينه بلا وقيعه • جار حقه بلا شريعته أخوى روحه مسبلا » •

ولقد خدمت شريعة الغابة المجتمع ، والأفراد خدمة جلى ، وحفزتهم في طريق الوعي والتطور .. ولقد كانت شريعة الغابة تمارس ، في السلم ، بالقوانين العنيفة .. وفي الحرب ، بحد السلاح .. ولقد أسلفنا القول بأن قوانين الغابة في أبشع صورها ، قد كانت شريعة اسلامية ، في معنى الاسلام العام — الارادة الالهية — فلم يدخل في الوجود شيء بغير هذه الارادة .. وهذه الشريعة العنيفة ، في حالتى السلم ، والحرب ، تكون من الله مرضية الى جانب انها مرادة ، حسب مواضع الحكمة من الزمن ، وهو ما يسمى بحكم الوقت .. قال تعالى في الصراع الذى توجهه حكمته بقانون الغابة : « واذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » • وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح !! وكفى بربك ، بذنوب عباده ، خبيرا بصيرا » • وعن الحكمة في هذا الصراع الدامى يقول تعالى : « ولولا دفع الله الناس ، بعضهم ببعض ، لفست الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » ويقول في موضع آخر : « ولولا دفع الله الناس ، بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد ، يذكر فيها اسم الله كثيرا .. ولينصرن الله من ينصره .. ان الله لقوى عزيز » • هذه هي الحكمة في صراع الغابة .. وقد بدأت في مضمار الدين الاسلامى العام .. ثم دخلت عهد الدين الاسلامى الخاص .. وقد نالها في هذه المرحلة شيء كثير من التلطيف .. وصور تلطيفها تعكس انتقال أفراد المجتمع من حالة الغلظة والجفوة ، الى حالة اللطف والوداعة .. والسير جميعه متجه الى تهذيب الفرد وتعليمه وتأديبه ، ونقله من الاستيحاش الى الاستيناس ، ومن الجهل الى العلم .. والنصر دائما للعلم على الجهل : « ولينصرن الله من ينصره ان الله

لقوى عزيز» •

وأهم أسباب الصراع ، ويمكن القول ، ان السبب الوحيد في الصراع ، هو « الرزق » - مطالب المعدة والجسد - فان الأحياء - منذ فجر الحياة قد تعرضوا لتجارب مريرة من الجوع •• وقد كانت المجاعات أدرا عاديا ، ومتفشيا •• ولا تجود البيئة الطبيعية من الأطعمة بالفائض الذى يغنى الحى عن أن يشتغل بخزن قوته ، أو أن يموت جوعا في أوقات القلة والندرة •• فبسبب الرزق ، والحرص عليه ، والظفر به ، صراع الديدان ، وصراع الحيتان ، وصراع الحيوان ، وصراع الانسان •• وهذه الصراعات ، في جميع المستويات ، هي التى حفزت حياة الأحياء ، وطورتها في مراقى التدنى من الكمال •• والله في ذلك الحكمة البالغة ، فهو تعالى يقول : « والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل شىء موزون * وجعلنا لكم فيها مماشى ، ومن لستم له برازقين * وان من شىء الا عندنا خزائنه ، وما ننزله الا بقدر معلوم * وارسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء ، فأسقيناكموه ، وما أنتم له بخازنين * وانا لنحن نحيى ، ونميت ، ونحسب الوارثون » •• قوله : « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » يعنى موزون بالحكمة •• فلا تكون فيه الوفرة التى تغنى عن الصراع •• قوله : « وما ننزله الا بقدر معلوم » •• هذا القدر المعلوم هو الذى يورث العلم بدقة توجيهه الحياة •• قوله : « وانا لنحن نحيى ونميت ، ونحسب الوارثون » •• يعنى « نحيى ونميت » بتقدير الأرزاق ، ومنها الآجال •• قوله « ونحسب الوارثون » •• يعنى لنا عاقبة تطور الأحياء بارتقائهم الى مقام عزهم •• ويقول ، جل من قائل ، عن الرزق أيضا في مقام آخر : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، انه بعباده خبير بصير * وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولى الحميد » •• فبضبط الرزق ، من قبض ، وبسط ، ساق الله اليه عباده في مراقى

التقرب ، يدفع بعضهم ببعض : « الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ، ويقدر له .. ان الله بكل شىء عليم » .

هذا الصراع من أجل الرزق ، هو قانون الحياة الأساسى .. والخوف من ألم الجوع ، ومن الموت جوعاً ، هو الخوف العنصرى الأول الذى عرفه الأحياء ، حيثما وجدوا .. وكل الحيل التى يحتالونها من بداية الحياة ، والى يوم الناس هذا إنما هى محاولة للفرار من ألم الجوع ، بالاستيثاق من وفرة الرزق .. وفى الحياة البدائية كحياة الحيتان ، فإن « الكبير يأكل الصغير » .. فإنه هو قوته .. وفى حياة الغابة « القوى يأكل الضعيف » فإنه هو قوته .. وعندما بزغت حياة الانسان فإن القوى من الناس يسترق الضعيف ، ويستغله ويستخدمه .. فإنه هو وسيلة قوته .. ومن هاهنا نشأ الدق ، ونشأ استغلال الأقوياء للضعاف .. ودخلت الحيل — قوة الذكاء — جنباً الى جنب مع قوة العضل ، لتنظم هذا الاستغلال واصبح المجتمع البشرى يعيش فى غابة تختلف عن غابة الحيوان اختلاف مقدار .. فالصراع فى هذا المستوى ، بين الاقوياء والضعاف إنما هو صراع بين المستغلين (بكسر الغين) والمستغلين (بفتح الغين) .. وهذه الصورة البشعة من صور المجتمع ، التى ما عرف المجتمع البشرى الى يومنا هذا ، على نطاق واسع ، غيرها هى التى طوعت لكارل ماركس أن يقرر مبادئه الأربعة :-

- ١ — مجرى التاريخ تتحكم فيه القوى الاقتصادية ..
- ٢ — التاريخ ما هو الا سجل لحرب الطبقات ..
- ٣ — الحكومة ما هى الا أداة تستخدمها طبقة فى اضطهاد طبقة أخرى ..
- ٤ — العنف والقوة هما الوسيلتان الوحيدتان لأحداث أى تغيير أساسى فى المجتمع .

ان هذه الصورة التى رسمها كارل ماركس ، على بشاعتها ، فيها كثير من

الحق .. ولكنها ، لحسن العناية الالهية ، والتوفيق الالهى انما هى مرحلة تتأدى البشرية بها الى الخير المطلق ، والى المحبة الشاملة ، والسلام التام .. وهى ليست ، كما ظنها كارل ماركس ، صورة ملازمة للانسان والمجتمع الانسانى ، لا تتطور الا فى داخلها ، وبوسائلها المتكررة ، وباختلاف يسير لا يخرجها من القيد الى الاطلاق ..

قانون الانسان :-

ومع أن سبب الصراع فى مجتمع الغابة ، فى الغالب الأعم ، قد كان الرزق ، فان صور الصراعات التى كانت دوافعها نصرة المظلومين ، والمستضعفين ، والدفاع عن الحقوق الضائعة ، بدوافع انسانية خيرة ، لم تكن غائبة تماما عن المسرح .. وبرز الدين الاسلامى الخاص ، من الدين الاسلامى العام ، فى الصور المتقدمة ، أخذت الاعتبارات الانسانية تزداد كل حين .. ولكأنه ، من يومئذ ، أخذت فى الظهور القيم التى تحض عليها هذه الآية : - « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله ، والمستضعفين من الرجال ، والنساء ، والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

وبظهور الدين الاسلامى الخاص ، فى مستوى التوحيد ، دخلت اعتبارات جديدة فى أسباب الصراعات التى ترخر بها البيئة البدائية - اعتبارات غير اعتبارات الرزق - أصبح ، بهـذه الاعتبارات الجديدة ، قتال الناس من أجل الرزق ، امرأعياً ، ومرذولاً .. قال تعالى فى ذلك : « الذين امنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت .. فقاتلوا أولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفاً » سـمى القتال من أجل الكسب المادى ، قتالاً فى سبيل الطاغوت .. وسمى الذين يقاتلون هـذا الضرب من القتال « أولياء الشيطان » .. وحرص (أولياء الرحمن) على قتالهم ، وهون أمرهم فى صدورهم .. وأولياء الرحمن هم

الذين يقاتلون في سبيل الله .. والقتال في سبيل الله ، انما هو نصرة للمستضعفين من الرجال ، والنساء ، والصبيان .. وبهذا الاعتبار اخذت شريعة الانسان ، التي يكون للضعيف فيها مكان ، يدال لها من شريعة الحيوان ، التي لا حق فيها الا للقوى .. وركزت الأديان على هذا النحو من الخلق الرفيع .. قال تعالى : « لقد ارسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب ، والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب .. ان الله قوى عزيز » .. قوله : « لقد ارسلنا رسلنا بالبينات » .. يعنى رسل البشر ، الذين اتصل بهم ملك الوحي ، فبين لهم الحقائق الواضحات ، وامروا أن يبينوا للناس ، وأيدوا في سبيل ذلك بالمعجزات ، وبقوة البيان .. قوله : « وأنزلنا معهم الكتاب » يعنى الكلمة الجامعة وهى : « لا اله الا الله » .. قوله « والميزان » يعنى الشريعة الموزونة بالصدق ، والحق ، والناهضة على التوحيد ، يعنى على « لا اله الا الله » .. قوله : « ليقوم الناس بالقسط » يعنى لينصفوا بعضهم من بعض ، يعنى ليقوموا العدل بينهم ، فلا يظلم ضعيف لضعفه ، ولا يستطيل قوى لقوته .. قوله : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » أشار « بالحديد » هنا الى السيف ، ومن ثم الى الجهاد في سبيل اقامة العدل ، والقسط ، ليدفع الناس بعضهم بعضا ، فلا ينحرف احد عن الجادة ، ومن ينحرف يرد ببأس الحديد الى الاستقامة عليها .. قوله : « ومنافع للناس » يشير الى سائر المنافع التى تكون فى الارتفاق بمعدن الحديد فى معترك الحياة .. ثم قال : « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » .. ها هنا اشارة الى الجهاد فى سبيل نصرة الحق .. ثم قال : « ان الله قوى عزيز » .. ها هنا اشارة الى أن نصرة الحق انما هى من الله .. فالذين يقاتلون فى سبيل نصرة الحق عليهم ان يكونوا شاكرين حين استعملهم ربهم استعمالا حسنا ، غنصر بهم الحق .. والله غنى عن الناصرين ، فهو « قوى عزيز » ومع أن معانى

القتال في سبيل الله اخذت تبرز ، وتستحوذ على المقاتلين ، فان دوافع الكسب المادى ، في صور الغنيمة والسبايا - غنيمة الاموال - وسبى النساء ، والذراري - لا تزال تكون قدراً عظيماً من حوافز هذا القتال عند المقاتلين ..

وقد درجهم بها الشارع الحكيم ، فاحلها لهم ، شريطة الا تكون هي الدافع الاساسى للقتال .. قال تعالى في تربيتهم في ذلك : « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ، ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام : لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة .. كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم ، فتبينوا !! ان الله كان بما تعملون خبيراً » .. يقول : « يا أيها الذين آمنوا » يعنى الأصحاب ، ومن تلاهم الى يومنا هذا : « اذا ضربتم في سبيل الله » ، يعنى اذا سافرتهم من أجل القتال في سبيل الله ، « فتبينوا !! » يعنى تثبتوا ، واستوثقوا ممن تقاتلون ، أهو مسلم ، أم هو كافر ؟؟ واذا لقيكم احد فحياكم بتحية الاسلام فاقبلوها منه ، ولا تقولوا له : انما قلتها لتتقى بها القتل .. ولا تقتلوه ابتغاء الغنيمة التى تأخذونها منه .. هذا هو معنى قوله : « ولا تقولوا لمن القى اليكم السلام : لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا » .. ثم قال « فعند الله مغانم كثيرة » اشارة الى ان الله يعنى ، عن الغنيمة غير المشروعة ، بما عنده من مغانم لا تحصى .. ثم ذكرهم بنوع من هذه المغانم ، وهو نوع اعلى من كل مغانم الدنيا ، فقال : « كذلك كنتم من قبل ، فمن الله عليكم » ، اشارة الى نعمة الاسلام بعد الكفر ، وهى نعمة لا تعدلها نعمة .. فمن كان كافراً ، فمن الله عليه ، فأخرجه من الكفر الى الايمان فلا يستطل ، وليكن به عطف على من كان في زمريتهم قبل ان يمن الله عليه ، فيخرجه من الظلام الى النور ، وليكن قتاله لهم ، حين يقاتلهم ، فيه عطف ورحمة وحكمة تستعمل السيف كمبضع الطبيب ، لا كمدية الجزار .. ثم قال حرة اخرى « فتبينوا !! » لتوكيد التثبت ، ووزن الامور ، حتى لا يقع التورط في الهلكة بقتل الابرياء ، ابتغاء الغنيمة .. ثم جاء بالفاصلة : « ان الله كان بما تعملون خبيراً » ليشير الى اطلاعه على خفايا النوايا ، ذلك بأن اخلاص الجهاد في

سبيل الله ، باطراح الاغراض الدنيا ، من دقائق الامور .. قرب مقاتل يظن انه يقاتل في سبيل الله ، ولا يدري انه انما يقاتل في سبيل الدنيا بما يرجوه من الغنائم والسبايا .. جاء في هذه الآية بنسق عال من التربية الرشيدة ليوجه الصراع وجهة القيم بدلا من وجهة العوامل الاقتصادية التي اشار اليها هاركنس .. وكما سبق أن قررنا ، فان من رشاد التوجيه الى مستوى القيم عدم اسقاط مغريات المادة .. فان النفوس ، لتتربى ، لا تقفز عبر الفضاء ، من مقام الى مقام ، وانما تتوكل على ضعفها ، فتسير ، من قديمها ، على هينة ، الى جديدها .. والا انقطعت ، وكلت ، ولم تبلغ منزلتها .. انظر كيف يدرجها !! « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فانزل السكينة عليهم ، واثابهم فتحا قريبا * ومغانم كثيرة ياخذونها ، وكان الله عزيزا حكيما * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه ، وكف ايدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطا مستقيما * وأخري لم تقدروا عليها !! قد احاط الله بها .. وكان الله على كل شيء قذيرا » .. قوله : « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » ، يعنى يبايعون على القتال في سبيل الله .. وتلك قد كانت بيعة الحديبية .. قوله : « فعلم ما في قلوبهم » من خلوص النية لوجه الله .. ثم جاء ليسوغهم الغنائم ، ويحلها لهم حين لم تكن اكبر همهم ، فأخلصوا النية ، وخلصوها من سلطان الغنيمة عليها ، فقال ، بعد ان بشرهم بنزول السكينة على قلوبهم ، : « ومغانم كثيرة ياخذونها » .. وقد كانت لهم بفتح خبير .. ثم قال : « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها » يعنى من الفتوحات المقبلة .. قوله : « فعجل لكم هذه » يشير الى غنيمة خبير ، ويمن عليهم بها ، لما علم خلوص نيتهم في الحديبية .. ثم جاء للغنائم ، مرة أخرى ، فقال : « وأخري لم تقدروا عليها ، قد احاط الله بها » ، إشارة للغنائم من الأمم الكبيرة التي لم يكن المسلمون ليقدرزوا على قتالها لولا عون الله اياهم .. شاهدنا ان العهد الجديد أخذ

يحول الناس من القتال في سبيل المغنم الى القتال في سبيل القيم ، فاستعمل
 المغنم كحوافز ثانوية حتى لا يقفز بالناس عبر الفضساء ، فيقع الخل في
 التطوير ، وتحصل النكسة . ثم ان استعماله للمغنم ، نفسه ، انما هو
 استعمال مرحلي . أكثر من هذا !! فان القتال في سبيل الله انما هو نفسه
 مرحلي . فان الله انما يريد للناس ان يعيشوا في سبيله ، لا ان يموتوا في
 سبيله . ومن هاهنا جاء قول النبي ، عقب كل عودة من عوداته من الغزوات :
 « رجعنا من الجهاد الاصغر ، الى الجهاد الاكبر . » ويعنى بالجهاد الاكبر
 جهاد النفس ، في حين ان الجهاد الاصغر هو جهاد العدو . واصول الدين
 كلها تقوم على الدعوة الى الحق عن طريق الاقناع ، والافهام ، والاسماح .
 تالله : « وقل الحق من ربكم . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . »
 « ما اعتدنا للظالمين نارا احاط بهم سرادقها . » وان يستغيثوا يغاثوا بماء
 كالمهل ، يشوي الوجوه ، بئس الشراب ، ونساء مرتفقا . » وقال ، في معنى
 هذا الاسماح ، : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم
 بالتي هي احسن . » ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو اعلم
 بالمهتدين . » وقال ، في منع الاكراه : « لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد
 من الغي . » فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة
 الوثقى ، لا انفصام لها . » والله سميع عليم . » فكانه قال . لا تكرر
 الناس ، بل بينوا الرشد من الغي بلسان حالكم ، وبلسان مقالكم ، فهذا يكفي
 كل ذي فطرة سليمة . وقال ، في منع التسلط ، وهو اوضح ما يقال في هذا
 الباب : « فذكر !! انما انت مذكر * لست عليهم بمسيطر » فهو ، تبارك ،
 وتعالى ، ينهى نبيه الكريم ، على كمال خلقه ، وتجافيه عن مواطن الاستعلاء ،
 ينهاه ان يسيطر على الناس . وما ذاك الا لقيمة كرامة الانسان عند الله .
 وفي هذا المستوى من الدين ، تنتقل الصورة تماما ، من قانون الغابة الى قانون
 الانسان . ويظهر مدى التخلف في افكار كارل ماركس التي سلفت الاشارة

اليها •• فان حكاية كارل ماركس في نقاطه الاربعة :-

١ - مجرى التاريخ تتحكم فيه القوى الاقتصادية ••

٢ - التاريخ ما هو الا سجل لحرب الطبقات ••

٣ - الحكومة ما هي الا اداة تستخدمها طبقة في اضطهاد طبقة أخرى •

٤ - العنف ، والقوة ، هما الوسيلتان الوحيدتان لاحداث أى تغيير اساسى

في المجتمع ••

انما هي حكاية عن الماضى •• وهى حكاية لا تستقيم حين يخرج الانسان من قانون الغابة ، الى قانون الانسان •• وهى على ذلك ، فى أحسن حالاتها ، انما هي مرحلة •• ولكن قسانون الانسان لم يجرى ، لأن الانسان نفسه لم يجرى ، بعد ، وانما تبشر بهذا المجيء الايات التى سلفت الاشارة اليها •• ولم يكن لهذه الايات حكم فى الماضى ، وانما أرجئت ، واعطى الحكم لآيات تأخذ فى اعتبارها مرحلة الانسان فى القرن السابع وعلى هذه الآيات الأخيرة قامت الشريعة الاسلامية الحاضرة (السلفية) •• وستكون لنا الى هذا الحديث عودة ، بشيء من التفصيل ، فى هذه التوطئة ••

المجتمع العبودى :-

الانسان كسلان بميله •• فهو لا يرغب فى العمل اليدوى ، ويحاول أن يحيله الى غيره دائما •• وهو الى ذلك ، خائف •• ويرجع خوفه الى ظروف العنف التى احتوشته ، فى بيئته الطبيعية التى يعيش فيها ، مما دفعه الى الحرص ، والى حب الجمع ، والادخار ، والاستكثار من الطعام والحطام ، وانما من هاهنا نشأ الرق •• فالرق هو امتلاك الانسان للانسان امتلاكاً يكون له به مطلق التصرف فى حياة رقيقه ، لانه من ماله •• وبالرق استطاع الانسان حواله عمله على غيره ، كما استطاع ان يكثر من ادخاره للطعام ، والحطام •• والرق انما هو ثمرة لعلبة الاقوياء على الضعاف •• واكبر موارده الحروب ••

قان القبيل المغلوب يكون رجاله رقيقا للقبيل الغالب ، ونساؤه سبايا ، يضمن الى حريم الغالبين ، أو يستخدمون في البيوت ، وفي الحقول .. ولا يزال الرق ، بصورة من الصور ، يلزم المجتمع البشرى الى يومنا هذا .. فهو يتقلب في صور الحيل اللطيفة ، ولكنه لا ينتهى .. ومن حسن التوفيق الالهى أن دخلت الآلة ليحال اليها العمل ، بدلا من الرقيق ، وليتوفر بها الانتاج ، حتى يتم تطمين الانسان على قوته .. فاذا وجد كسل الانسان عن القيام بعمله مندوخته في الحوالة على الآلة ، ووجد خوف الانسان على قوته طمأنينته بوفرة الانتاج ، فان الطريق يفتح على التحرير ، وعلى استئصال صور المجتمعات العبودية مهما دقت ، هذه الصور ، ولطفت .. وهذا لا يكون الا في عهد قانون الانسان ، الذى تعتبر كل العراكات البشرية التى تنزت بالدم ، وتنضحت بالعرق ، مقدمة طبيعية له ..

المــــــرأة :

تحدثنا عن الرق ، وكيف أنه ثمرة الحروب ، والمغارات ، وكيف أن الرجال يسترقون ، والنساء يسبين ، فيضمن الى الرقيق ، أو يضمن الى الحريم ، فظهر ، من ههنا ، حظ المرأة المسبية .. فما هو حظ المرأة الحرة ؟؟ أهى رقيق أيضا ؟؟ أم هل هى ملكة ؟؟ أن وضع المرأة فى الأسر وضع غريب حقا .. انها ليست رقيقا ، بالمعنى المفهوم عن الرق ، ولكنها ليست حرة .. فالرقيق يكاد يعامل من وجهة نظر واحدة ، هى الشعور بانه مال مملوك ، ضمن المال .. ولكن المرأة تعامل من وجهة نظر تنبعث من خليط من المشاعر .. فهى مملوكة ، وان اختلف نوع ملكيتها عن ملكية الرقيق .. وهى محبوبة ، وحبا يبحث على استحواذ الرجل عليها .. وهى ما عون الولد ، والحرص على انقاء النسب يسوق الى تشديد الرقابة عليها .. وهى ضعيفة ، فى مجتمع الفضيلة فيه للقوة .. وهى متهمه ، ومظنة خطيئة ، فلا ترى لها عفة مرعية الا عفة يسهر

عليها الرجل .. يقول شاعرهم في ذلك :-
أسكن ، ما ماء الفرات وطيبه
منى على ظمأ وبعد شراب
بالذمك ، وان نأيت ، وقلمما
ترعى النساء أمانة الغياب

من هذه المواقف المختلطة ، ومن مشاعر غيرها ، تدخل في بابها ، جاءت
معاملة المرأة ، وضرب عليها الحجاب ، وعولت معاملة القاصر ، المتهم ..
ونزع أمرها من يدها ، وجعل الى أبيها ، أو أخيها ، أو وليها من أقاربها
الأدنين ، أو قدي يجعل لطلق رجل من العشيرة ، أو للحاكم ، أو لزوجها .. ولا
يكاد يختلف حظ المرأة في بلد ، دون بلد ، الا اختلافا طفيفا .. وعندنا في
الجزيرة العربية ، عندما لشرقت عليها شمس الاسلام ، كانت الأنثى تعامل شر
معاملة .. وكان التخلص منها يعتبر مكرمة من المكارم ، وكانت ، من أجل
ذلك ، تدفن حية .. ولقد جاء الاسلام بتقريعهم على هذا الصنيع الشنيع ..
قال تعالى : « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى
من القوم من سوء ما بشر به .. أيمنكه على هون ؟ أم يدسه في التراب ؟ ألا
ساء ما يحكمون ! ! » . وقال تعالى ، في موضع آخر : « واذا الموءودة
سئلت * بأي ذنب قتلت ؟ » وهي انما كانت تؤاد حية لأمر من أمرين ، أو
لكليهما معا : أما خوف المضايقة في الرزق الضيق ، أو خوف العار .. فقد كان
المجتمع الجاهلي ، في الجزيرة العربية ، يعيش في ضنك شديد ، وفي جوع
عضوض .. وكان مجتمعا لا يرعى تنظيمه قانون ، فهو يمثل قانون الغابة ، في
أبشع صوره ، حتى انهم قالوا : « من غلب سلب » .. وكانت الأنثى ، في
مجتمعهم هذا ، تكلفهم المشقة ، والجهد الجهد ، في اعاليتها ، وفي حمايتها من
غارات المغيرين ، من اشقياء القبائل الأخرى .. ومع كل أولئك فقد كانت
معاملتها كرقيق مملوك أظهر صيغ معاملاتها .. فكان الجاهليون يتزوجون

العشر، والعشرين زوجة .. يستغلون النساء ، يستولدونهن ، ويستخدمونهن في بعض أعمالهم .. وهم عن طريق الزواج ، يمارسون الرق .. ولا تزال صور بشعة ، من هذا الاسترقاق عن طريق الزواج ، تمارس في المجتمعات المتخلفة المعاصرة .. ونحن ، في بعض اجزاء بلادنا ، نعرفها .. وعندي أن التسلط على المرأة ، حين يكون معتدلا ، ومستهدفا حماية عرضها ، وصون عفتها بضرب الحجاب المعتدل عليها ، يكون أمره مقبولا بمقتضى حكم الوقت .. ولكن هناك كثيرا من التسلط عليها ، ممن لا يهتمون بصونها ، ولا بعفتها .. فيرجع الأمر الى الملكية ، والاسترقاق .. ومهما يكن من الأمر ، فإن الاعتدال في معاملة النساء أمر نادر .. فالحجاب الذى يضربه المسلمون اليوم على نسائهم ، في بعض البلاد الاسلامية ، فيه شطط يمليه سوء الظن ، والغيرة المتهمة ، وحب تسلط القوى على الضعيف .. فقد جاءت الشريعة الاسلامية السلفية بضرب من الحجاب ، فيه الاعتدال المطلوب ، والقصد الحميد ، ولكن الناس يتجاوزونه بدوافع مما أسلفنا ذكره ..

ثم ان الاسلام ورث هذه الأوضاع البشعة التى كانت تجرى في مجتمع انجاهلية .. فحسم المشتط منها حسما .. ولكنه لم يكن ليتخلص من سائرها ، فينهض بالمرأة الى المستوى الذى يريده لها في أصوله ، وما ينبغى له أن يتخلص ، وما يستطيع .. ذلك بان حكمة التشريع تقتضى التدريج .. فان الناس لا يعيشون في الفراغ .. والمجتمعات لا تتقفز عبر الفضاء ، وانما هى تتطور تطورا وثيدا ، وعلى مكث .. فوجب على التشريع اذن ان يأخذ في اعتباره طاقة المجتمع على التطور ، وحاجته الراهنة فيجدد قديمه ، ويرسم خط تطوره ، ويحفزه على السير في المراقى .. وهذا ما فعله التشريع الاسلامى .. فانه قد احتفظ بتعدد الزوجات ، ولكنه حصره في أربع ، مراعى ، في ذلك ، أدريين حكيمين .. هما اعزاز المرأة ، وحكم الوقت .. فأما حكم الوقت فانه قد كانت المرأة تعيش في المستوى الذى أسلفنا ذكره ، وما كانت اذن

لتستطيع أن تمارس حقها في المساواة ، بين عشية وضحاها .. وانما كانت
 لا بد لها من فترة انتقال ، تنهياً خلالها لتنزل منزلة عزتها ، وكرامتها ، كاملة ،
 غير منقوصة .. ومن حكم الوقت أيضا ان كان عدد النساء أكبر من عدد
 الرجال ، وذلك لما تأكل الحروب منهم ، فرأى الشارع الحكيم : أنه أن يكن
 للمرأة ربع رجل ، يعفها ، ويصونها ، ويغذوها ، خير من أن تكون متعيسة ،
 بغير رجل .. وكذلك سمح بالتعدد الى أربع .. فقال : « فانكحوا ما طاب لكم
 من النساء ، مثنى ، وثلاث ، ورباع .. فان خفتن ألا تعدلوا ، فواحدة » وقال ،
 في موضع آخر : « وان امرأة خافت من بعلها نشوزا ، أو اعراضا ، فلا جناح
 عليهما أن يصلحا بينهما صلحا .. والصلح خير .. واحضرت الانفس
 الشح .. وان تحسنوا ، وتتقوا ، فان الله كان بما تعملون خبيرا * ولن
 تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ، ولو حرصتم .. فلا تميلوا ، كل الميل ،
 فتذروها كالمعلقة .. وان تصلحوا ، وتتقوا ، فان الله كان غفورا رحيما » ..
 فهو ليصل الى شريعته هذه المتمشية مع حكم الوقت ، تنزل عن أصله ، وتجاوز
 عن العدل التام ، وسمح ببعض الميل ، فقال : « فلا تميلوا ، كل الميل .. »
 مع أنه ، لولا حكم الوقت ، لم يكن ليسمح الا بالعدل التام .. وهو ، في أصول
 الدين ، لا يتجاوز عن بعض الميل .. وفي أمر المال فانه أشرك الأنثى في
 الميراث ، ولكنه جعلها على النصف من الرجل ، فقال : « للذكر مثل حظ
 الأنثيين » .. وأدخلها في عدالة الشهادة ، ولكنه جعلها على النصف من الرجل
 أيضا ، فقال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم .. فان لم يكتفنا رجلين ،
 فرجل ، وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ، ان تضل احدهما فتذكر احدهما
 الأخرى » .. ان هذه الشريعة السلفية عادلة ، وحكيمة ، اذا اعتبر حكم
 الوقت .. ولكن ، يجب أن يكون واضحا ، فانها ليست الكلمة الأخيرة للدين ..
 وانما هي تنظيم للمرحلة ، يتهيأ بها ، وخلال وقتها ، المجتمع ، برجاله ونسائه ،
 لدخول عهد شريعة الانسان ، ويتخلص من عقابيل شريعة الغابة ، خلاصا يكاد

يكون تاماً .. ويومئذ تعامل المرأة ، في المجتمع ، كإنسان .. لا كأنثى .. ذلك هو يوم عزها المدخر لها في أصول الدين ..

عودة الى قانون الانسان :-

قلنا : ان الانسان لم يجرى بعد ، وانما جاء طلائعه في صور أنبياء الحقيقة .. فالإنسان تطور على ابن آدم ، (البشر) .. وقلنا : ان صور المملكة تتفاوت في شكل هرمي ، قمته الانسان ، يليه ، من أسفله البشر (بنو آدم) ، يليهم ، من أسفلهم ، الحيوان .. وهكذا الى ان نصل الى القاعدة .. وقد اسلفنا تفصيل هذه الصورة ، في جملتها .. والاسلام ، في أصوله ، يحوى شريعة الانسان .. ولكنه ، في فروع ، أعنى في شريعته السلفية ، لا يزال يحوى بعض السمات اللطيفة من قانون الغابة .. وانما جاءه هذا التخلف (اذا ما قورن بالاصول) من حكم الوقت ، حين التشريع .. وقد بينا الحكمة في ذلك ..

كان محمد هو وحده الانسان ، في سائر أمته .. وكانت له شريعة خاصة ، قامت على أصول الاسلام .. وكانت شريعة أمته تقوم على الفروع .. ولقد نزلت الاصول في مكة ، فيما هو معروف عندنا بالآيات ، والصور ، المكية .. وقد استمر نزولها خلال ثلاث عشرة سنة .. فلم يستجب لها الجاهليون .. فظهر ، ظهوراً عملياً ، انها فوق طاقتهم .. فسحبت من التداول ، في مستوى التشريع .. ونزل التتزيل على حكم الوقت .. وجاءت آيات الفروع .. وهى ما تعرف عندنا بالآيات المدنية ، وبالصور المدنية .. وفي قمة الاصول آيات التكليف الفردى .. والتكليف الفردى يعنى العبودية .. فالعبودية ، في مستواها الرفيع ، لا تكون الافردية ، ذلك بأنها هى مواجهة العبد للرب ، وتأدب العبد مع الرب ، بالادب اللائق بالعبودية نحو الربوبية .. وأمثلة ذلك في القرآن كثيرة .. منها قوله تعالى : « ان كل من في السموات

والارض الا آتى الرحمن عبداً * لقد احصاهم ، وعدهم عدا * وكلهم آتية
يوم القيامة فرداً » .. ومنها قوله تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى ، كما
خلقناكم أول مرة » .. ومنها قوله تعالى : « ونرثه ما يقول ، ويأتينا فردا » ..
وتأدب العبودية مع الربوبية انما يقوم على العلم بالحقيقة .. والحقيقة ، في
هذا المستوى ، هى معرفة أسرار الالهية .. وتلك معرفة ذوقية .. وهى ،
من ثم ، دائماً فردية .. ولما كان النبى صاحب شريعة فردية ، من حيث انه
نبي ، فقد جاء تكليفه فى القمة .. فهو ، وان كانت الصلاة المكتوبة مفروضة
عليه ، وعلى أمته ، فهو يؤديها كما يؤدونها ، من حيث الهيئة ، الا انه قد كان
مخصوصاً بصلاة الليل .. فهى فرض عليه ، حين لم تجىء فى حق امته الا عن
طريق الندب الى التأسى به .. قال تعالى : « يا أيها المزمع الليل الا
قليلاً * نصفه ، أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه .. ورتل القرآن ترتيلاً *
انا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً * ان ناثثة الليل هى أشد وطأ ، واقوم قليلاً .. »
وهو قد كان يؤدى الصيام المكتوب ، من حيث الهيئة ، كما تؤديه أمته ..
وكان ، فى صيام التطوع ، يواصل الصيام ، بمعنى انه قد يصوم ، صوما متصلاً
ثلاثة أيام ، وليلتين ، من غير ان يفطر اثناءها .. فلما اراد أصحابه ان يقلدوه
فى ذلك نهاهم ، وأمرهم بالصيام الشرعى المكتوب عليهم .. فلما قالوا : « فانا
مراك تواصل يا رسول الله » ، قال : « انى لست كأحدكم .. فانى ابيت عند
ربى ، يطعمنى ، ويسقيني .. » وهو لم يكن ، بالطبع ، ليسقى ، ويطعم ،
الشراب ، والطعام ، الماديين ، وانما هو اليقين بالله .. فهو لم يكن ، من حيث
اليقين ، كأحدهم .. وكذلك اختلف عنهم .. فاركان الاسلام الخمسة ، عنده ،
تختلف عنها ، عندهم ، وان اتفقت فى ظاهر الصورة .. وما ذلك الا لكان
معرفة بالله .. وفى المال — الزكاة — والمال هو المحك دائماً ، الذى فى التكليف
بإخراجه تظهر خبايا النفوس ، فقد كان يختلف عنهم اختلافاً أساسياً .. فهو
قد كان ركنه التعبدى ، من حيث المال ، فى مستوى آية : « ويسألونك ماذا

ينفقون !! قل : العفو !!» .. وهو قد فسر «العفو» بكل ما زاد عن حاجته الحاضرة .. فهو ، من ثم ، لم يكن ليدخر رزق اليوم لغد .. ثم ان تكليف الأمة قد تنزل من هذا المستوى الى مستوى يطيقونه .. ولقد جاء تكليفهم في الزكاة في مستوى آية : « خذ من اموالهم صدقة ، تطهرهم ، وتركيهم بها .. وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم .. » .. واعتبرت هذه الآية ، في حق شريعة الامة ، ناسخة لتلك .. قامت على هذه الشريعة الجماعية .. وظلت تلك سنداً ، وعمدة ، لشريعة النبي الفردية ، ولاحظ للامة فيها ، الا حظاً يجيء عن طريق النذب ، والتأسي ، ومحاولة اتقان اتباع النبي ، لمن استطاع منهم ..

آيات الاصول ، وآيات الفروع :-

قلنا : ان الآيات المكية هي آيات الاصول ، وان الآيات المدنية هي آيات الفروع .. وقلنا ، ان نزول آيات الاصول قد تواتر خلال ثلاث عشرة سنة ، أثناء العهد المكي .. فلم يستجب لها الجاهليون .. فظهر ظهوراً عظيماً ، انها اكبر من مستواهم .. فنزل الى مستواهم ، بعد الهجرة الى المدينة ، وبعد افتتاح العهد المدني .. فنزلت آيات الفروع .. واعتبرت صاحبة الوقت ، لمناسبتها لمستوى الناس .. ونسخت آيات الفروع ، آيات الاصول .. فآيات الاصول هي قمة الدين .. وكانت تقوم على تقرير كرامة الانسان — على الحرية — ومن هاهنا كانت آيات اسماح .. ومنعت الاكراه منما تاماً .. وهي كثيرة جداً .. ومن امثالها قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي احسن .. ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو اعلم بالمهتدين » .. ومنها : « وقل الحق من ربكم !! فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .. » .. ومنها قوله : « فذكر !! » ..

انما انت مذكر ❀ لست عليهم بمسيطر !! » ..

وعند نهاية الفترة المكية التى بها ظهر القصور العملى عن شأو آيات
الاصول ، بدأ عهد التحول ، ليجىء التنزيل فى مستوى الامة يومئذ •• وأول
ما بدىء به التحول قوله تعالى : « اخن للذين يقاتلون بانهم ظلموا •• وان الله
على نصرهم لقدير •• » هذا اذن ، بعد ان لم يكن اذن بالقتال •• بل بعد ان قد
كان نهى عنه •• ثم جاء فى طريق التحول بنقلة أخرى ، فقال : « وقاتلوا فى
سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا •• ان الله لا يحب المعتدين » •• ثم
جاء بخاتمة العهد القديم ، فنسخ آيات الاسماح جميعها ، وذلك حيث قال :
« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله •• فان انتهوا فلا عدوان
الا على الظالمين » •• فهو ها هنا قد جاء بالحكمة وراء القتال ، وهى انهاء
الشرك ، وتوطيد عبادة الله وحده ، لا شريك له •• « حتى لا تكون فتنة » •• ،
أى شرك •• « ويكون الدين لله » ، خالصاً ، من غير شريك •• قوله :
« مان انتهوا » يعنى عن الشرك •• « فلا عدوان الا على الظالمين » •• يعنى
لا يكون قتال بالسيف ، وانما تكون إقامة الشريعة على الخارجين عليها من
المؤمنين بالمعصية •• وفى هذا المستوى جاءت آية « التوبة » التى سميت :
« آية السيف » واعتبرت ناسخة لجميع آيات الاسماح •• قال تعالى فيها :
« فاذا انسلكوا الشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ،
واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد •• فان تابوا ، واقاموا الصلاة ، وآتوا
الزكاة ، فخلوا سبيلهم •• ان الله غفور رحيم •• » •• هذه الآية توجت
الصورة التى بدأت منذ حين •• وقيل المعصوم ، فى بدايتها : « امرت ان اقاتل
اناس حتى يشهدوا ان « لا اله الا الله وان محمداً رسول الله ، ويقيموا
الصلاة ، ويؤتوا الزكاة •• فاذا فعلوا ، عصموا منى اموالهم ، ودماءهم ، الا
بحقها •• وامرهم الى الله » •• فلكان العهد الذى بدأ بعرض الحربية ،
وحمايتها ، والحرص على توفيرها ، الى الحد الذى ينهى فيه النبى ، على كمال
خفقه ، عن السيطرة على الأفراد : « فذكر !! انما انت مذكر * لست عليهم

بمسيطر» ، قد أنتهى .. وقد بدأت مصادرة حرية من يسىء التصرف فى الحرية .. وهذا حق ، وعدل ، لا يأتىه الباطل ، ولا الظلم ، لا من بين يديه ، ولا من خلفه .. فانه ، فى أصل الإسلام ، ان الناس أحرار ، على شرط ان يحسنوا التصرف فى الحرية .. وحسن التصرف فى الحرية معناه : افراد الله بالعبادة ، لأن الله ، تبارك ، وتعالى ، يقول : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » فهو تعالى قد خلق الناس ليعبدوه ، وحده ، لا شريك له .. ووفر لهم من نعمة العقل ، ونعمة البدن ، ونعمة الرزق ، ما يعينهم على حسن عبادته .. ثم انهم انصرفوا عنها ، وعكفوا على عبادة اصنام ينحتونها بأيديهم فارسل لهم رسوله ، وهياه بكمال الصفات ، وحلاوة السمائل ، وانزل معه قرآنا معجزاً ، يتلى ، وايده بكل البيّنات ، ليذكرهم ، بأيام الله ويدعوهم الى عبادته ثم ان الرسول اجتهد فى ذلك ، لا يآلو .. ومكث بين ظهرانيهم ثلاث عشرة سنة يبيغهم الخير .. يحتمل أذاهم ، ويكف عنهم كل الأذى .. فلم يستجيبوا .. بل بلغ طغيانهم ان تأمروا على حياته ، فظهر ، من كل أولئك ، أنهم قصر ، وانهم دون مستوى مسؤولية الحرية ، فسحبت منهم الحرية .. وجعل أمرهم الى النبي ، وصياً عليهم ، (شأن التصرف دائماً) ، وأمر أن يرشدهم ، وان يحملهم على مصلحتهم ، بالأكراه ، ان اقتضى الأمر .. وكذلك جاء الامر بالجهاد .. وجاء حديثه الأنف الذكر .. وكانت مصادرة الحرية ، للمشركين عن طريق السيف ، والله مؤمنين عن طريق الشريعة .. والتشريع عادة لا يصادر الحرية ، وانما ينظّمها .. ولكن التشريع فى مرحلة الوصاية يشكل قدراً من المصادرة ، فهو يصادر الحرية التى لا يطيق تحمل مسؤولية حسن التصرف فيها القاصر .. ومن هذا الباب آية الشورى التى يعتبرها علماء المسلمين آية ديمقراطية ، وما هى بذاك ، وانما هى آية حكم الفرد الرشيد الذى جعل وصياً على القصر ، وأمر بترشيدهم حتى يكونوا أهلاً للديمقراطية ، بنهوضهم الى مستوى حسن التصرف فى الحرية الفردية .. وآية الشورى تقول : « فيما

رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا ، غليظ القلب ، لأنفضوا من حولك ..
 غاف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في الأمر .. فإذا عزمت فتوكل على
 الله .. ان الله يحب المتوكلين » .. هذه آية الشورى .. وهى ، كما قررنا ،
 ليست بآية ديمقراطية .. أكثر من هذا !! انها ناسخة لآية الديمقراطية ..
 ناسخة لقوله تعالى : « فذكر !! انها انت مذكر ❀ لست عليهم بمسيطر »
 هاتان الآيتان هما آيتا الديمقراطية .. وهما منسوختان على مستويين .. فأما
 فى مستوى المشركين ، فمنسوختان بآية السيف .. وأما فى مستوى المؤمنين ،
 فمنسوختان بهذه الآية — آية الشورى — ومادعنا فى ذكر الديمقراطية فمن
 الخير ان نستطرد يسيراً الى ذكر توأمتها — الاشتراكية .. فان الاشتراكية فى
 اصول الاسلام ، وليست ، فى فروعه — أعنى أنها ليست فى شريعته .. فآية
 الاشتراكية « ويسألونك ماذا ينفقون !! قل العفو !! » وهذه هى آية الزكاة
 الكبرى ، آية زكاة النبی .. وهى ، فى حق الشريعة ، للأمة ، غير ملزمة ، وانما
 هى منسوخة بالآية الفرعية ، آية الزكاة الصغرى :

« خذ من أموالهم صدقة ، تطهرهم ، وتركيهم بها ، وصل عليهم : ان
 صلاتك سكن لهم .. والله سميع عليم » ونختم هذا الاستطراد القصير بكلمة
 أخيرة يجب ان تكون مفهومة ، فان من يتحدث عن الديمقراطية ، والاشتراكية ،
 فى الاسلام ، من غير أن يتحدث عن تطوير الشريعة السلغية من مستوى آيات
 الفروع ، الى مستوى آيات الاصول انما يدلى بباطل ، ويتحدث فيما لا
 يعلم ..

الوصاية :-

بيننا أن الشريعة الإسلامية ، حيث قامت على آيات الفروع ، فقد قامت
 على عهد الوصاية « وهر عهد لابد أن يكون مرحلياً فإنه ، الا يكن كذلك ، تكن
 آيات الأصول ، وهى قمة ديننا منسوخة ، والى الأبد بآيات الفروع ، وهى
 دونها بما لا يقاس .. ومعنى هذا ان يقدم المنفول على الفاضل ، وهذا مالا

يكون لأنه يتنا في مع الحكمة .. فلم يبق الا أن نسخ الفاضل بالمفضول هو
 نسخ مؤقت .. والحكمة وراءه انما هي نقل المجتمع المتخلف ، في المراقى ،
 ليستعد ليستأهل آيات الأصول .. وحيث كانت الأمة قاصرة ، وكان النبي
 وصياً حتى على الرجال ، فان الرجال ، بدورهم ، وعلى قصورهم قد جعلوا
 أوصياء على النساء .. وذلك لما كان قصورهن الكبير ، الذي ورثته من العهد
 الجاهلى .. والآية التى تقوم عليها وصاية النبي على الرجال ، هى آية الشورى
 . وقد اوردناها من قبل ونصها : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً ،
 غليظ القلب لانفضوا من حولك .. فأعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى
 الأمر .. فاذا عزم فتوكل على الله .. ان الله يحب المتوكلين » .. قوله :
 « فاذا عزم فتوكل على الله » هو الذى يحمل سر الوصاية .. فكان الشورى
 مأمور بها ، ولكن رأى المستشارين غير ملزم .. فلكانه قال : شاورهم فى
 الأمر ، لتطيب خواطرهم ، ولتصحح ، عندهم ، احترام بشريتهم ، ولتجعل لهم
 مشاركة فى أمورهم ، ولتعدهم ليخرجوا من دور القصر الى دور
 الراشدين .. فاذا كان رأيهم موافقاً لرأىك ، أو لم يكن لك رأى عتيد فيما
 شاورتهم فيه ، وعزمت على تنفيذ ما أشاروا به .. فتوكل على الله ، ونفذ ..
 أما اذا كان ما أشاروا به لا يتفق مع ما ترى ، وعزمت على تنفيذ ما تراه
 جواباً ، فاطرح رأيهم .. فانه غير ملزم لك ، وتوكل على الله فى تنفيذ ما
 ترى .. هذا شأن الأوصياء الراشدين ، مع القصر الذين جعلوا تحت
 وصايتهم .. هذا الفهم لطبيعة الشورى لا يحتاج منا الى طويل تفصيل ، فانه ،
 فى التجارب المعاشة عندنا الآن ، صاحب الأمر غير ملزم باستشارة المستشار ،
 هذا فى المكان الاول ، ثم هو ، ان استشاره ، فانه ، على التحقيق ، غير ملزم
 بالأخذ بمشورته ، وانما هو يستشير ليستأنس برأى المستشار .. هذا اذا كان
 المستشار صاحب اختصاص ، فما ظنك به اذا كان قاصراً ؟؟ أليس من الغريب
 أن توهم هذه الآية احداً بأنها آية ديمقراطية ؟؟ والآية التى تقوم عليها وصاية

الرجال على النساء ، هي آية : « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم ، فالصالحات قانتات ، حافظات للغيب ، بما حفظ الله ، واللاتى يخافون نशوزهن ، فعظوهن ، وأهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن .. فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا .. ان الله كان عليا كبيرا » .. قوله « الرجال قوامون على النساء » .. يعنى أوصياء عليهن ، لهم عليهن حق الطاعة .. السبب ؟؟ « بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم .. » .. والفضيلة ، ههنا ، هي ، فى المكان الأول ، فضيلة جسدية .. هي قوة الساعد ، وقوة الاحتمال ، والمقدرة على الانتصار فى مآزق الحروب ، أو مضانك كسب العيش .. فان الفضائل تختلف اختلافا كبيرا من مجتمع لآخر ، فما هو فضيلة فى مجتمع بعينه ، قد لا يكون فضيلة فى مجتمع آخر .. فانك أنت اليوم فى مدينة أمدرمان ، حيث حكومة القانون قائمة ، وحيث رجال الأمن ساهرون ، فليس من الفضيلة أن تسير فى الشوارع وأنت تحمل سلاحا ، سيفا كان ، أو حربة ، أو بندقية ، ابتغاء أن تعتدى على من قد يعتدى عليك .. ولكن الفضيلة فى أن تطمئن الى القانون وان تحترم القانون فلا تأخذ فى يدك ، وانما تحرك دولابه ليقص هو لك ممن اعتدى عليك .. ثم ان صنيعك هذا الذى اعتبر فضيلة فى مدينة أمدرمان لا يعتبر فضيلة فى بادية الكبابيش ، أو فى جبال البحر الأحمر ، أو فى احراش الجنوب ، وانما تكون الفضيلة فى هذه المواطن أن تسير وانت تحمل من السلاح ما تردع به من عسى تحدثه نفسه بالتعرض لك بالمكروه ، أو ، على أيسر تقدير ، ما ترهبه به .. هذا هو اختلاف الفضيلة بين مجتمع المدينة مثلا ومجتمع الغابة .. وعلى نحو من هذا الأساس تقاس الفضيلة فى قوله : « بما فضل الله بعضهم على بعض » .. وبسبيل من هذا تجيء المقدرة على كسب الأرزاق ، واحراز الأموال .. ومن ثم : « وبما أنفقوا من أموالهم » .. فكان المرأة ، لما كان ضعفها الجسدى ، وضعفها الوظيفى ، فى معترك الفضيلة فيه ، فى أغلب

الاحيان ، لقوة الساعد ، ولفرصة الخلو من الموانع التي تعسوق الكدح ، والسعى ، قد اصبحت محتاجة الى من يغذوها ، ومن يحميها .. ومن ثم ، نقد اضطرت ، فدفعت قسطا كبيرا من حرقتها ثمنا تحرز به حمايتها ، وغذاءها .. لعدري !! ليس الأمر بهذه الغلظة ، ولا هو بهذا الجفاف !! ولكن ، لاضر ، غان ما ذكر يعطى صورة ، عن قاعدة التعامل ، في بداياتها ، على وجه العموم .. يتضح من هذا الاستقراء اليسير ، أن قانون الانسان كلما أديل من قانون الغابة ، تصبح المرأة مستغنية عن حماية الرجل .. فلا تكون مضطرة ، من أجل الحماية ، أن تنزل عن قسط كبير جدا من حرقتها كمن لها .. ذلك بأن الحماية — حماية الرجل ، وحماية المرأة — ستحال على القانون ، كما رأينا في المثل الذي ضربناه .. ويومئذ تنتقل الفضيلة ، من قوة العضل ، الى قوة العقل ، وقوة الخلق ، ولن يكون حظ المرأة ، في هذا الميدان ، حظا منقوصا بوانها هي فيه مؤهلة لتبز كثيرا من الرجال .. وما يقال عن الحماية يقال عن النفقة التي هي سبب القوامه الثاني : «وبما أنفقوا من أموالهم» .. فانه ، في المجتمع الذي تكون فيه الفضيلة لقوة العقل ، وقوة الخلق ، تتييسر المكاسب للضعاف ، كما تتييسر للأقوياء ، أو تكاد .. وفي القرآن آية عتيده ، هي أس الرجاء لمستقبل المرأة .. «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة .. والله عزيز حكيم» ..

ولقد اسلفنا القول بأن المعروف هو ما تواضع عليه الناس ، نتيجة لتمرسهم بمشاكل الحياة ، ونتيجة ، تبعا لذلك ، لتطورهم في مراقبها ، بشرط واحد ، هو الا يكون هذا المعروف الذي تواضعوا عليه معوقا لغرض من أغراض الدين .. وجماع أغراض الدين كرامة الانسان .. فنحن المسلمين ، اليوم ، بعد أن أنفقنا أربعة عشر قرنا من ممارسة الحياة ، ومن التطور معها ، أصبح عندنا من «المعروف» ان نعلم الفتاة في أساليب العلوم الغربية ، وإلى أعلى المراحل ، حتى لقد أصبح عندنا الطيبية ، والقاضية ، والمحامية ، والمعلمة

في أعلى المستويات ، والمهندسة ، والزراعية ، والبيطرية ، والإدارية .. ولقد
انجزت فتياتنا ، في كل أولئك ، انجازات تشرح الصدر ، وتقر العين .. ولا
يمكن لعاقل ، أو لغير عاقل ، ان يزعم أن صنيعنا هذا بالفتاة من المنكر ، وليس
من المعروف ، وبالطبع فان نهوض الفتاة بهذا المستوى من الواجب يعطيها
الفرصة في التمتع بحق مساو له .. هذا هو معنى قوله تعالى : « لهن مثل الذي
عليهن بالمعروف » .. حقوقهن لقاء واجباتهن ، « حذوك النعل بالنعل » ..
هذا هو الحق والعدل وأما قوله : « وللرجال عليهن درجة » فهو لا يعنى في هذا
المستوى ، درجة التفضيل في المساواة امام القانون ، وان وقع التفضيل بالدرجة
في منطقة الاخلاق .. ومهما يكن من الأمر ، فليس مطلق رجل أفضل من مطلق
امرأة .. هذا ما لا ينبغي ، ولا يكون ، والواقع المعاش يرفضه ..

والآن فانا ، بفضل الله ، تم بفضل هذا « المعروف » الذي تواضعنا
عليه ، والذي أملتة علينا طبيعة الحياة المعاصرة ، حيث أخذنا بتعليم الفتاة في
أعلى المراحل ، قد أصبحنا نعيش تناقضا واضحا مع شريعتنا السلفية .. لدينا
اليوم ، في الخرطوم ، قاضية شرعية ، تخرجت من كلية الحقوق ، بجامعة
الخرطوم .. وهذا يعنى أنها تمارس ، أو من حقها ان تمارس حقها في تطبيق
انثريعة الإسلامية على المتحاكمين اليها ، على قدم المساواة مع زميلها الذي
تخرج معها .. ولكن هذه الشريعة تقول ان شهادة هذه القاضية انما هي على
النصف من شهادة زميلها هذا .. اكثر من هذا !! فان شهادتها انما هي على
النصف من شهادة رجل الشاوع !! فهل هذا قول سليم ؟؟ لعمرى !! ان الخل
ليس في الدين ، ولكنه انما هو في العقول التي لا يحركها مثل هذا التناقض
لتدرك ان في الأمر سرا .. هذا السر هو ببساطة شديدة ، ان شريعتنا السلفية
مرحلية .. وانها لا تستقيم مع قامة الحياة المعاصرة .. وانها ، لتستطيع
استيعاب هذه الحياة ، وتوجيه طاقتها الكبيرة ، لابد لها من ان تتفتق ،
وتتطور ، وترتفع من فروع القرآن الى أصوله .. هذا ما تعطيه بدائه العقول ،

بله حكمة الدين .. فانه ، الا يكن هذا الأمر الذى نزعمه صحيحا ، يكن الدين قد استنفذ أغراضه ، وأصبح عاجزا عن التصدى لتحديات الحياة المعاصرة .. وهذا ما لا يقول به رجل أوتى أبسط الأمام بأصول الدين ..

الاسلام والسلام ..

ان حاجة العالم اليوم للاسلام هى حاجته الى السلام .. وتلك حاجة « حياة » أو « موت » .. والاسلام دين السلام .. هو رسالته ، وهو جوهره .. قال المعصوم : « لكل شئ قلب ، وقلب القرآن « يسن » .. و « يسن » لها قلب » .. وقد عرف العارفون أن قلب « يسن » انما هو قوله تعالى : « سلام قولا من رب رحيم » .. وتحية الاسلام ، حين يلقي المسلمون بعضهم بعضا ، وحين يلقون غيرهم ، فى جميع أوقات اليوم أو الليل ، وفى جميع الأمكنة انما هى قولهم : « السلام عليكم » .. ومن حديث المعصوم ان خير الناس من « أطعم الطعام وأفشى السلام ، وصلى بالليل والناس نيام » .. وغرض العبادة فى الاسلام تحقيق السلام الداخلى ، فى كل نفس بشرية .. سلام مع الله وسلام مع النفس وسلام مع الناس — مع الأحياء والأشياء — وفى حديث المعصوم : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .. وحين تعنى كلمة « المسلمون » هنا ، المسلمين بالاسلام العام — وهو معنى غير مستبعد من الصورة — بل هو معنى حاضر فى الصورة — يصبح نص الحديث : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده » — المسلم من سلمت الأحياء والأشياء من لسانه ويده — لان طريق العبادة ، فى تحقيق السلام الداخلى ، هو تحقيق الحرورية الفردية المطلقة .. والحر ، فى هذا المستوى ، هو الذى يفكر كما يريد ، ويقول كما يفكر ، ويعمل كما يقول ، ثم لا تكون نتيجة قوله ، وعمله ، الا خيرا ، وبراً ، بالأحياء ، وبالأشياء .. فهو بذلك يكون قد احرز وحدته الداخلية ، وهذه الوحدة الداخلية هى ثمرة التوحيد ، وهى هى السلام .. وموعد هذا

الدين هو الظهور على الأديان كلها .. يقول تعالى في ذلك : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ، ليظهره على الدين كله .. وكفى بالله شهيدا » .. وهو ، انما يظهر على الأديان ، لمقدرته الفريدة على تحقيق السلام في كل نفس بشرية .. ومن ثم ، تحقيق السلام في الأرض ، بملئها عدلا ، كما ملئت جوراً .. وانما تجيئه هذه المقدرة التي يتميز بها على جميع الأديان ، وعلى جميع الفلسفات الاجتماعية الأخريات ، من مقدرته على التوفيق بين حاجة الفرد الى الحرية الفردية المطلقة ، وحاجة الجماعة الى العدالة الاجتماعية الشاملة .. والأرضية التي يقوم عليها هذا الأنجاز انما هي شريعة الديمقراطية والاشتراكية يجتمعان في جهاز واحد ، اذ هما كجناحي الطائر .. فكما ان الطائر لا ينهض بجناح واحد ، فكذلك المجتمع السوي ، الذي ينبج الأحرار ، فانه لا ينهض الا بجناحين ، من ديمقراطية ، واشتراكية ..

وبالديمقراطية والاشتراكية ، مجتمعتين ، يتم الخروج من شرعية الغابة ، حيث الحق للقوى ، ويبدأ الدخول في شرعية الإنسان ، حيث للضعيف حق ، ينص عليه القانون ، ويطبقه القضاء ، وتنفذه السلطة .. وحين حض الإسلام ، في فروعه ، على القتال في سبيل المستضعفين ، لنصرة حتهم بالسيف فقال : « وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله ، والمستضعفين ، من الرجال ، والنساء ، والولدان ، الذين يقولون : ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ..

واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا .. » انما أراد من نصرة السيف لحق الضعفاء ان تكون مقدمة لنصرتهم بالقانون .. فان السيف هو لغة الحرب ، والقانون هو لغة السلام .. ولقد استجاب الله للمستضعفين دعاءهم حيث قالوا : « واجعل لنا من لدنك وليا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا .. » وما يكون من « لدن » الله لا يكون حربا ، وانما يكون سلاما .. وهذه اشارة الى حكم القانون الذي يعقب حكم الصيف ..

قانون الإنسان يدال له من قانون الغابة .. يقبل تعالى في وعده
المستضعفين النصر : « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ،
ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين » .. والمرأة ، وهي اكبر من المستضعف
في الأرض ، عبر التاريخ ، لا فرصة لها في النصف الا يوم تقوم شريعة
الإنسان ، على انقاض شريعة الغابة ..
الدستور الاسلامي ..

وآول شريعة الإنسان ، وأدناها منزلة القانون الدستوري ..
والقانون الدستوري هو تفريع على الدستور .. والدستور هو القانون
الأساسي .. وهو ، انما سمي القانون الأساسي ، لانه ينص على الحقوق
الاساسية .. والحقوق الاساسية ، انما سميت حقوقا أساسية ، لأنها
لا تمنح ، ولا تسلب ، في شريعة الانسان ، بغير حق .. وهي حق الحياة ،
وحق الحرية ، وما يتفرع عليهما ، أساسا ، مما هو مكمل لهما ، وحافظ لهما
وجوهر القانون الأساسي — جوهر الدستور — هو رفع الوصاية عن
الراشدين من الرجال والنساء .. فلا وصاية الا على الأطفال .. فان فيه كل
فرد بشري ، من رجل أو امرأة ، انما هو غاية في ذاته ، ولا يصح ، بحال من
الأحوال ، ان يجعل وسيلة لغيره .. وهذه النظرة الأساسية تؤخذ من
أصل أصول القرآن .. وهو أصل الفردية .. فان المسؤولية ، في أصل
الاسلام ، انما هي مسئولية فردية .. فنحن ، في الأساس ، مكفون بالعبودية
لله ، ومسئولون أمام الله عن تحقيق هذه العبودية .. ولا تنصب موازين
المسئولية ، يوم تنصب ، الا لكل فرد على حدة يقول تعالى : « ولقد جئتمونا
فردا ، كما خلقناكم أول مرة » .. ويقول تعالى : « ونبرئه ما يقول ويأتينا
فردا » .. ويقول تعالى : « ان كل من في السموات والأرض ، الا آتى
الرحمن عبدا * لقد أحصاهم ، وعدهم عدا * وكلهم آتية ، يوم القيامة ،
فردا » .. ويقول تعالى في مبدأ المسؤولية الفردية : « يوم تأتي كل نفس

تجادل عن نفسها .. وتوفى كل نفس ما عملت .. وهم لا يظلمون » .. .
ويقول : « كل نفس بما كسبت رهينة » .. ويقول أيضا في تقرير مبدأ
المسئولية الفردية : « ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى
حملها لا يحمل منه شيء ، ولو كان ذا قربى .. انما تنذر الذين يخشون
ربهم بالغيب ، وأقاموا الصلاة ، ومن تركى فانما يتركى لنفسه ، والى الله
المصير .. » ويقول ايضا : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا .. والأمر
يومئذ لله .. » فليس للرجل ان يحمل عن المرأة مسئوليتها ، ولا للمرأة
ان تحمل عنه مسئوليته .. فما الذى أوجب النزول عن مستوى مبدأ المسئولية
الفردية الكاملة الى مستوى الوصاية — المسئولية الفردية المنقوصة ؟؟

الجواب : هو حكم الوقت ، فقد كان الرجال قلة صرير .. والنساء ؟؟
من باب أولى !! وقد بينا ذلك عند الحديث عن الآيات المكية التى استمر
نزولها ثلاث عشرة سنة على مجتمع الجاهليين ، حتى اذا ظهر قصورهم عمليا
عن النهوض لمستوى المسئولية الكاملة ، سحبت آيات الأصوات هذه ،
واستبدلت بآيات الفروع — الآيات المدنية — ونزل ، بهذا ، الاستبدال ،
الى مستوى الناس يومئذ ، وقامت الوصاية مقلم المسئولية التامة .. ولن
تنتهى الوصاية ، لا على الرجال ، ولا على النساء .. ولكنها مستحالة على
القانون الدستورى .. فيكون القانون هو الوصى على الرشد من رجال ،
ومن نساء .. لأن علامة الرشد هى تحمل المسئولية فلكأن الرجال
احرار ، والنساء ، فى ان يفكروا ، وان يقولوا ، وان يعملوا
كما يشاءون ، بشرط واحد ، هو : ان يتحملوا
مسئولية قولهم ، وعملهم ، وفقد قانون دستورى ، والقانون الدستورى ،
فى هذا المقام ، هو القانون الذى يوفق ، فى سياق واحد ، بين حاجة الفرد ،
وحاجة الجماعة ، ويقيم الجماعة مقام الوسيلة لا تتعدها .. ويضع الفرد
موضع الغاية من كل سعى الحياة ، لا ينحط عنها .. ولا أمل للمتضعفين ،
من رجال ، ومن نساء ، ومن أطفال ، فى الحرية ، والكرامة ، والمسئولية ، الا

بهذا القانون .. ولا أمل في هذا القانون، لا عن طريق الدستور الإسلامى ..
ولا سبيل الى الدستور الإسلامى الا يبعث آيات الأصول لتكون هى
صاحبة الوقت ، اليوم ، يعد ان كانت منسوخة ، أمس .. ذلك بان
الدستور الإسلامى ليس فى الشريعة الإسلامية ، وانما هو فى أصول
الدين .. وهو ليس فى للشريعة الإسلامية لسبب واحد ، بسيط ، هو أن
الشريعة الإسلامية ، التى بين أيدينا اليوم ، انما قامت على الوصاية ، كما
بيننا ، وليس فى الوصاية دستور ، على الإطلاق ..

المساواة بين الرجال والنساء ..

يخطئ كثير من الناس فهم معنى المساواة بين الرجال والنساء ،
فيظنون ان المساواة تقوم على المقدرة المتساوية على قوة الاحتمال ، وشدة
الأسر ، حتى انك لتسمع بعض الناس فى المركبات العامة ينهون بعض الشبان عن
ان يتركوا مقاعدهم لبعض النساء ، ممن لا يجدن مقاعد ، فيظلن قائمات فى
المركبة .. ثم هم انما يبررون هذا النهى بقولهم : « لا تقوموا لهن فانهن
يطالبن بالمساواة مع الرجال » .. وهذا فهم خاطئ ، خطأ أساسيا .. فان
المساواة ، بين الرجال والنساء ، ليست مساواة الميزان ، والمسطرة ..
وانما هى مساواة القيمة .. ومعنى ذلك ان المرأة ، فى نفسها ، كإنسان ،
وفى المجتمع ، كمواطنة ، ذات قيمة مساوية لقيمة الرجل ، فى نفسه ،
كإنسان ، وفى المجتمع ، كمواطن .. وهذه المساواة تقوم وان وقع الاختلاف
فى الخصائص ، النفسية ، والعضوية ، فى بنية الرجال والنساء .. وهى
تقوم ، وان اختلفت الوظيفة الاجتماعية ، وميدان الخدمة للمجتمع ، الذى
يتحرك فيه الرجال والنساء ..

ان النظرة المادية للأمور ، هذه النظرة التى هى سمة المدنية الغربية
الحاضرة ، هى التى طوعت لهذا الخطأ المؤسف ان يتركز فى اذهان الناس ..

ذلك بان قيمة الإنسان ، في هذه المدنية ، هي قيمة ما ينتج من آلات الإنتاج ، ومن ادوات الاستهلاك .. فعندما بدأت الرأسمالية تتبلور في القطاع ، والصناعة ، وفي الصناعة بشكل خاص ، كان استغلال النساء ، والصبيان ، وسائر العمال ، يجرى بصورة يشعة .. فقد كانت ساعات العمل طويلة ، وكانت الأجور زهيدة .. فلكأنما العامل انما كان يعطى الأجر الذى يحفظ الحياة عليه ، ويعطيه القدرة على مواصلة الإنتاج ، من أجل صاحب المصنع ، أو صاحب المزرعة .. ومن هذا المستوى بدأ الصراع ، بين العمال والعاملات من جانب ، وأصحاب العمل من الجانب الآخر .. وأخذت التنظيمات العمالية تظهر ، وتنظم ، وتنضبط ، وتناضل .. وأخذت المرأة ، وهي مشمولة في هذا التنظيم ، تتطلع الى منافسة الرجل ، وتطمح الى المساواة معه في الأجر .. ومعلوم ، ومقدر ، ان شعار الانتاج الطبيعى ان الأجر المتساوى لا يكون الا للعمل المتساوى .. ومن ههنا ، ومن وقت بعيد ، بدأ مفهوم المساواة الخاطيء يجد طريقه الى الأذهان .. ولم تغير الاشتراكية التى جاءت بالثورة السوفيتية في هذا المفهوم الخاطيء ، بل مدت له ، وعمقته .. ولا غرو ، في ذلك !! فان القاعدة المشتركة بين الرأسمالية والاشتراكية الماركسية انما هي النظرة المادية .. واليوم فانه ، في الدول الاشتراكية ، لا تعرف للمرأة كرامة الا ان كانت مستقلة اقتصاديا .. وهذا يعنى عندهم ، ان تكون امرأة عاملة في ميادين الانتاج التقليدية ، وفي الحركة الشيوعية كلها تظهر حركة المرأة وكأنها قضية عمل ، وانتاج .. فاتجهت المرأة اتجاه الرجال حتى استرجلت ، أو كادت .. ويحدثنا باحث اجتماعى ، هو فرائك لوريمر ، ان اشتغال نساء الاتحاد السوفيتى بالأعمال الشاقة قد تسبب في زيادة في الأجهاض ، وزيادة في انخفاض الخصوبة في النساء .. وهذا عندنا أمر طبيعى ما دامت الدولة لا تدخل في تقييمها الاقتصادى عمل المرأة في المنزل .. فالمرأة السوية ، التى تنجح الى ممارسة وظيفتها

الأساسية ، في انجاب الأطفال ، وتكوين الاسر ، ورعاية شئونهم في بيوت
سعيدة ، انما تقوم بذلك على حساب راحتها ، وصحتها .. ذلك بان الدولة
لا تعتبر هذا العمل انتاجا يقاس الى انتاج أدوات الاستهلاك .. فهي
مطلوب منها أساساً ان تؤدي ساعات عملها كما يؤديها زوجها ، ثم اذا رجع
للمنزل ، يكون من حظ زوجها ان يرتاح ، ويكون من حظها هي ان تواصل
العمل فيما يحتاج اليه منزلها المشترك ، من خدمة ضرورية ، ومن عناية
بالاطفال .. ومثل هذا الشقاء تكون له نتيجة نفسية واحدة ، محتمة ، هي
الرغبة عن كثرة انجاب الأطفال .. وهذا الميل النفسى يترك أثراً عضوياً هو
انخفاض الخصوبة ..

ان الاشتراكية السليمة يجب ان تدخل قيماً جديدة في التقدير ..
وتلك هي القيم التي تجعل المادة وسيلة الإنسان الى الحرية ، لا بديلاً عن
الحرية .. اذ ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ..

فاذا ما دخلت هذه النظرة التقييمية الجديدة فان الإنسان سيكون سيد
الآلة ، وليس خادمها .. وستكون المرأة المنتجة ، وفي القمة ، هي المرأة التي
تنجب الأطفال ، وتعنى بهم ، كما ، وكيفاً .. وستكون هي أولى بالتكريم
من العلماء ، والفنيين الذين يعملون في انتاج الطائرات ، والصواريخ ..
وهي ، من ثم تستحق من المجتمع المكافأة الأدبية ، والمادية التي بها تتحقق ،
وتتأكد ، كرامتها ..

المرأة مكانها البيت

كثيراً ما نسمع الناس يقولون : المرأة مكانها البيت .. وهي قولة
جح أريد بها باطل .. هم يريدون بها الى الحجاب .. وعدم السماح للمرأة
ان تخرج ، لا للعمل ولا للنزهة .. والحق في هذه العبارة : ان يجب ان
نتعاون ، رجالاً ونساء ، على إعادة تكوين البيت ، ليكون مكاناً للسعادة ،

والحب ، ورضا النفس ، يجد فيه الرجل ، والمرأة ، والأطفال ، دفء الحب ، وبرد السلام .. ويجب ان تكون المرأة فيه الملكة ، لا الخادمة .. فهي المنجبة للأطفال ، والمشرفة على الأطفال ، والمربية والمهذبة ، للأطفال ، ليكونوا نماذج عالية في الخلق ، والذكاء ، والكفاية الذاتية .. وهي ، فوق ذلك كله ، وقبل ذلك كله ، مرفأ الأمان لزوجها يستظل بظلها ، ويجد في حبها ، وفهمها ، ما يقوى به على حسن خدمة الجماعة ، وعلى قطع درجات الكمالات الذاتية حتى يرقيا المراقى ، سمتاً فوق سمت ، الى منازل الكمال المقدور لهما ..

واذا ما عرفنا للبيت هذا المقام فان قولنا : « المرأة مكانها البيت » سيلقى علينا واجب تعليم الفتيات في أعلى مراحل التعليم ، واعداد ادهن عقليا ، وخلقيا ، ونفسيا ، وجسديا ، الى المستوى الذى يرفع عنهن الوصاية ، ويجعلهن مسئولات ، مسئولية تامة ، أمام القانون ، كمسئولية شقائقهن الرجال ، لا وكس ، ولا شطط .. وعلى وفق مستوى هذه المسئولية يكون حقهن في الحرية ، والكرامة : « لهن مثل الذى عليهن بالمعروف » هذا في منطقة القانون .. « وللرجال عليهن درجة » هذا في منطقة الأخلاق .. حيث يقع التفاوت بين الرجال ، فيما بينهم ، وبين النساء ، فيما بينهن ، وبين بعض النساء وبعض الرجال ، ثم لا ينسحب هذا التفاوت من منطقة الأخلاق على منطقة القانون ، فيؤثر على الحقوق ، والواجبات ، كما هو الشأن في ظل الشريعة السلفية .. ذلك بان منطقة الأخلاق هي فوق مستوى القوانين .. والمراقب لها هو الله .. والمكافئ على الحسنه فيها هو الله .. والمجازى على السيئه فيها هو الله .. وذلك : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ما عملت ، وهم لا يظلمون .. » هل احتاج ان اقول ان هذا لا يعنى ان الله لا يجازى المحسن ، والمسيء ، في منطقة القانون ، وانما يتركهما لنا ، وانما هو يعنى اننا لا نجازى ، أو قد لا نجازى ، المحسن ، والمسيء ، في منطقة الأخلاق ،

وانما نتركهما له .. ذلك بان للأحسان ، وللإساءة ، في منطقة الأخلاق ، موازين أدق من موازيننا ..

ويستقيم أيضا مع إعادة تقييمنا للمنزل ان المرأة قد تعمل خارج المنزل اذا كانت تستطيع التوفيق بين العمل وإدارة المنزل .. (ولكنها على التحقيق ، لن تعمل في الأعمال الشاقة ، العنيفة ، التي يجب ان ينفرد بها الرجال) .. ذلك ان بالعمل ينضبط الفكر ، وتتعمق التجربة وتنضج الشخصية .. هذا الى عديد القيم التي تكسبها ممارسة العمل المرأة ، مما تحتاجه في خدمة مجتمعيها ، وبيتها ، وأطفالها ، ومما تحتاجه في تحرير مواهبها التي بها ارتقاؤها ، وكمالها الذاتي .. هذا وللرأفة ميادين عمل ، قد خلقت وهي مهياة لها ، اكثر من غيرها .. فينبغي اعدادها لها مهنيا ، وفنيا ، كميادين التعليم في جميع مستوياته ، والطب ، وطب الأطفال والنساء ، بصورة خاصة ، وكالتمريض ، والقانون ، وتولى القضاء ، وبخاصة في محاكم اصلاح الأحداث .. فان المجتمع قد يجد خدمة أفضل حين تتولى المرأة هذه الميادين ، اذا ما قورنت بالرجل ..

خاتمة التوطئة

هذه توطئة للبحث قد طالت ... ولم يكن من طولها بد .. لأنها انما اريد بها الى اعداد المسرح الذي تتحرك فيه صور القوانين المتطورة ، تطورا قد يخيل للرائي أنه قفزة ، وما هو بالقفزة ، تماما .. ولكننا هو خلاصة الفضائل التي استجمعت خلال تطور المجتمع البشري الطويل ، في طريق مملوء بالدماء ، والدموع ، والعرق .. هو حصيلة هذا المجهود .. وهو ، بذلك ، يمثل الخروج من طور ، والدخول في طور جديد .. هو يمثل الخروج من اخريات طور قانون الغابة الذي نعيشه اليوم ، حيث لا تزال القوانين متأثر برغبة الأقوياء ضد مصلحة الضعفاء ، والدخول على طور قانون الإنسان ، حيث القوانين دستورية ، وهي بذلك قسط موزون لا يطمع فيها القوى ، ولا ييأس منها الضعيف ، وانما هي العدل ، والرحمة ، والخير

للأحياء وللأشياء .. والذي يهمنا ان نختم به هذه التوطئة أمران : الأمر الأول هو ان نقرر ان الإنسان ، من حيث هو انسان ، بصرف النظر عن ملته ، أو لونه ، أو لغته ، أو عنصره أو اقليمه ، لا أمل له في الكرامة ، لا في دنياه ، ولا في آخرته ، الا بالاسلام .. والأمر الثاني هو ان نبشر المستضعفين في الأرض — النساء ، والأطفال ، وسواد الرجال — ان موعود الله آت ، وذلك حيث يقول : « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الأرض ، ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين » .. ولكن يجب ان يكون واضحاً لهؤلاء ان موعود كرامتهم انما هو في أصول الاسلام ، لا في فروعها ، ذلك بان فروع الاسلام مرحلة وصاية .. وهي مرحلة انما أريد بها الى ان تكون مرحلة أنتقال ، يترشد خلالها القصر ليستأهلوا أصول الاسلام .. وأصول الاسلام مرتبة مسئولية .. وهذا هو الذي جعلها تؤكد على الفردية .. فالفرد حر ، ومسئول عن حسن تصرفه في الحرية ، فاذا أخطأ في التصرف صودرت حريته بقانون .. وليس غرض القانون الانتقام ، وانما غرضه التربية ، لكل رجل ، ولكل امرأة ، ليتحقق لكل منهما حسن التصرف في الممارسة المقبلة .. وهذا ما سمي بالقانون الدستوري .. لا وصاية في ظل أصول الاسلام الا لهذا القانون .. القانون الدستوري هو الوصي .. هو وصي على الرجال ، والنساء على حد سواء ..

فاذا كانت المرأة ، والثقافة منها بشكل خاص ، وهي تعتبر خير ممثل للمستضعفين في الأرض ، تهمها كرامتها ، وكرامة أطفالها ، فعليها ان تتمسك بتطوير الشريعة الإسلامية ، من فروعها الى أصولها .. لا يثنيها عن هذا التمسك وعد ، ولا وعيد ..

هل تريدون الحق ؟؟ انن فاسمعوا !!

لا كرامة لمطلق حتى على هذا الكوكب ، الا ببعث أصول الاسلام .. الا ببعث آيات الأصول التي كانت منسوخة ، ونسخ آيات الفروع التي كانت ناسخة في القرن السابع .. فليستيقن هذا رجال المسلمين ونسائهم ..

الزواج

الزواج في الحقيقة :

هناك زواج في « الحقيقة » .. وهناك زواج في « الشريعة » .. فاما ،
في (الحقيقة) فان زوجتك هي صنو نفسك .. هي شقيقة نفسك .. هي
انبثاق نفسك عنك خارجك .. وهي ، بذلك ، جماع آيات الآفاق لك .. وإلى
ذلك الإشارة بقوله تعالى : « سنريهم آياتنا ، في الآفاق ، وفي انفسهم ،
حتى يتبين لهم انه الحق .. أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟! » ..
وما يقال ، في هذا المستوى ، عن موضع الزوجة من الزوج ، يقال عن موضع
الزوج من الله .. فالزوجة هي أول تنزل من الوحدانية الحادثة الى الثنائية ..
هذه هي الزوجة في « الحقيقة » : « يأيها الناس اتقوا ربكم ، الذي
خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ،
ونساء .. واتقوا الله الذي تساءلون به ، والأرحام .. ان الله كان عليكم
رقيباً » .. وهذه النفس الواحدة هي ، في أول الأمر ، وفي بدء التنزل ،
نفس الله ، تبارك وتعالى — هي الذات القديمة التي منها تنزلت الذات
الحادثة ، وتلك هي الإنسان الكامل (الحقيقة الحمدية) .. والإنسان
الكامل هو أول قابل لتجليات أنوار الذات القديمة — الذات الإلهية — وهو ،
من ثم ، زوجها .. وانما كان الإنسان الكامل زوج الله لأنه انما هو في مقام
العبودية .. ومقام العبودية مقام انفعال ، في حين ان مقام الربوبية مقام
فعل .. فالرب فاعل ، والعبد منفعل .. ثم تنزلت من الإنسان الكامل
زوجته .. فكان مقامها منه ، مقامه ، هو ، من الذات .. فهي منفعة ، وهو
فاعل .. وهذا هو ، في الحقيقة ، مستوى العلاقة « الجنسية » بين الرجل
والمرأة .. وقد خلق الله تبارك ، وتعالى ، من كل شيء زوجين ، اثنين ..
والحكمة في خلق الزوجين هي ان تستطيع العقول ان تدرك الأشياء .. لأن

العقول انما برزت بالثنائية ، ولا مجال لها في الادراك في مرتبة الوحدة المطلقة .. قال تعالى ، عن حكمة خلق الأزواج : « ومن كل شيء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون » .. هذه هي العلة في خلق الزوجين : « لعلكم تذكرون » .. و « تذكرون » هنا تعنى تميزون ، وتعلمون .. وانما سسمى (العلم) تذكراً ، لأننا ، في الواقع لا نتعلم شيئاً مستأنفاً ، وانما نحن فقط نتذكر ما قد نسينا .. ذلك بأن فينا ، مركوزة ، الحقيقة الأزلية — الذات المطلقة — ولكننا نسيناها ، فجاء القرآن ، بتشاريعه في العبادة ، وفي العادة ، ليذكرنا بهذه « الحقيقة » التي نسيناها : « ولقد يسرنا القرآن للذكر * فهل من مدكر ؟ » .. والى خلق الأزواج كلها أشار ، تبارك وتعالى ، بقوله : « سبحانه الذي خلق الأزواج كلها ، مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون » .. « ومما لا يعلمون » هذه ، تحوى الإشارة الى زوج الذات الحادثة « ومن انفسهم » هذه ، تحوى العبارة عن أزواجنا — المرأة — و « مما تنبت الأرض » هذه ، تحوى الإشارة الى كل شيء .. وحين يكون انجاب الذرية هو نتيجة العلاقة « الجنسية » بيننا وبين نساءنا : « وبث منهما رجالا كثيراً ، ونساء » ، تكون ثمرة العلاقة بين الذات القديمة وزوجها — الإنسان الكامل — المعارف اللدنية .. فان أنفعال العبودية للربوبية يرفع الحجب التى أنستنا النفس التى هى أصلنا — نفس الله ، تبارك ، وتعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » .. وحين يتم اللقاء بين هذين الزوجين — الذات الالهية ، والإنسان الكامل — ينبث العلم اللدنى ، فى فيض يغمر العبد العالم من جميع اقطاره .. ومن هذا العلم .. اللدنى رجال ، ونساء ، « وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون » .. فهذا الوضع بين الذات الالهية ، والإنسان الكامل — انفعال العبودية بالربوبية — هو الذى جاء الوضع منه بين الرجال والنساء — انفعال الأنوثة بالذكورة .. وهو ما يسمى عندنا ، بالعلاقة « الجنسية » ..

وهي علاقة عظيمة الشرف لأنها ، حين تقع بشريعتها بين الأطهار الرفعاء ،
العارفين بالله ، تكون ثمرتها ، المباشرة تعميق الحياة ، واخصابها ، ووصلها
بالله ، بغير حجاب .. وهذه هي ذروة اللذة .. وتكون ثمرتها ، شـبـه
المباشرة ، المعارف اللدنية ، التي تفاض والتي تغمر الذكر ، والانثى ، اللذين
تقع بينهما هذه المشاركة النظيفة الرفيعة .. ثم تكون ثمرتها ، غير المباشرة ،
الذرية الصالحة من بنين وبنات : « وبث منهما رجالا كثيرا ، ونساء .. »
وانما عنيت بالمباشرة المتصلة بالذات الالهية ، وشبه المباشرة ، التي تليها
من حيث القرب من الذات ، وغير المباشرة التي تلي هذه .. ثم تتوالى
الذات في التنزل كلذة الأستمتاع ، والانتفاع بالذرية الصالحة ، التي تكون
قرة عين في الدنيا والآخرة ..

ومن أجل شرف هذه العلاقة « الجنسية » الذي حاولنا أن نبينه في
الأسطر السابقة وقع شديد الحرص عليها في الدين .. وهي اكبر مظهر
للحياة في مجال تعبيرها عن وجودها .. ومن أجل ذلك قامت على تنظيمها
أول « شريعة » عرفها الإنسان ، ووقع عليها أول « كبت » في العقل الباطن ..
ومن أجل هذا « الكبت » الذي وقع في « قاع » العقل شرع الرجم بالحجارة ..
تصوب الى الدماغ ، عقوبة على مخالفة الممارسة .. وشـدـد في أمر
عقوبة الزنا على العموم : أكثر من ذلك !! شددت العقوبة على القاذف به
غيره ان لم يستطع أن يثبته عليه .. فكان أدق حدين في الإسلام حد الزنا ،
وحد القذف .. قال تعالى : « والذين يرمون المحصنات ، ثم
لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ،
ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » بل أكثر من
ذلك !! شدد في زجر الخائضين فيه .. فقال : « ولولا فضل الله عليكم ،
ورحمته في الدنيا والآخرة ، لسكنم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » * اذ
تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا ،

وهو عند الله عظيم * ولولا اذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك ، هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ، ان كنتم مؤمنين » .

وقال في وعيده الذين يتهاونون في هذا الخوض : « ان الذين يرمون المحصنات ، الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم السنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم ، بما كانوا يعملون » . بل أكثر من ذلك !! فانه توعد ، أشد الوعيد ، الذين يسمحون لخواطرمهم أن تجول في نسبة الزنا للآخرين . فقال ، تبارك ، وتعالى : « ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ، في الدنيا والآخرة ، والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون » . ولم ينه الله ، تبارك ، وتعالى ، عن مقارفة الزنا نفسه ، بل نهى حتى عن مقاربته فقال ، عز من قائل : « ولا تقربوا الزنا . انه كان فاحشة ، وساء سبيلا » . ولخطر هذا الجرم عنده شدد في اثباته ، تشديداً يجعله في حكم المستحيل . ويكفى أن يقال انه لم يقع ، في طول قاريخ الاسلام ، اثبات شرعى لجريمة الزنا : وما وقع فيه من اقامة الحدود لم يقع الا بالأعتراف . ثم يجيء التشديد من جانب المعصوم . فيقول : « لا يزنى الزانى ، حين يزنى ، وهو مؤمن » . وهذا أمر في غاية الخطورة . ذلك بأن هذا الحديث إنما يعنى ان الايمان يرفع عن المؤمن ، لحظة المقارفة ، حتى أنه لو مات فيها مات على غير الايمان . ويقول المعصوم ، في هذا التشديد أيضا ، « يا أمة محمد !! والله ما أحد غير من الله ، أن يزنى عبده ، أو تزنى أمته . يا أمة محمد !! والله لو تعلمون ما أعلم ، لبكيتم كثيرا ، ولضحكتم قليلا » .

هذا قليل ، من كثير ، يقال في احاطة هذه العلاقة الرفيعة ، بين الرجل والمرأة ، بأسباب الصيانة ، والحفظ . وهى ، لمكان كرامتها ، وعظيم أثرها في حياتنا ، لا يحفظ علينا صونها الا الله . قال تعالى في ذلك : « يأيها

الذين آمنوا !! لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء ، والمنكر .. ولولا فضل الله عليكم ، ورحمته ، ما زكى منكم من أحد أبدا ، ولكن الله يزكى من يشاء .. والله سميع عليم .. » .. قوله : « فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر .. » .. « الفحشاء » هنا الزنا .. « والمنكر » هنا اتهام الآخرين به .. قوله : « ولولا فضل الله عليكم ، ورحمته ، ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء .. » .. يعنى ما تطهر ، ولا تصون ، ولا تنظف من احوال الممارسة ، غير المشروعة أحد أبدا .. قوله « ولكن الله يزكى من يشاء » ، بشرى بعموم الزكاة .. فان العباد بها ، جميعا ، سيتزكون .. وجاءت العبارة فى الفاصلة بقوله : « والله سميع عليم » ، لتؤكد هذا المعنى الذى ذهبنا اليه .. فهو « سميع » لنداء الفروع التى تطلب الأصول وقد حجبته عنها الخطيئة .. وهو « عليم » بطريق خلاصها من الخطيئة ، لتعود الى وطنها فى الذات : « يأبىها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » .. وقد أسلفنا فى ذلك القول ..

وفى عجزنا عن صون أنفسنا ، ومجىء الصون من فضل الله علينا قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله ، بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم .. فالصالحات قانتات ، حافظات للغيب ، بما حفظ الله .. واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع واضربوهن .. فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا .. ان الله كان عليا كبيرا .. » .. قوله : « الرجال قوامون على النساء » يعنى أوصياء ، متسلطون ، لهم عليهن حق الطاعة .. فان قلت ما هى الحكمة وراء هذا التسليط ؟ قلنا : الحفظ — حفظ فروج النساء — هذا فى المرحلة .. ويجىء قوله تعالى : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب » ، ومعنى الصالحات الطاهرات ، الصيئات .. ومعنى قانتات مطيعات لربهن ، ولأوليائهن من الرجال .. ومعنى « حافظات للغيب » ، حافظات لفروجهن

هذا الحفظ يكون بدوافع من طاعة الله ، والخوف من الله ، ويكون بطاعة الأولياء ، والخوف من الأولياء .. هذا جميعه في المرحلة .. ثم تقضى المرحلة الى العفة ، والصيانة المضروبة على الرجال والنساء جميعا والتي أشار اليها ، تبارك ، وتعالى ، هنا إشارة لطيفة بقوله : « بما حفظ الله » .. ويطيب لى هنا أن أشير الى أس الرجاء في هذه الآية لجميع النساء ، وذلك أنهن حين يبلغن هذا المبلغ من العفة ، والتصون ، ترفع وصاية الرجال عنهن ويكون اليهن ، في ظل الله ، أمر القيام على انفسهن ، تحت وصاية القانون ..

الزواج في الشريعة

اسلفنا القول عن الزواج في « الحقيقة » ، وندخل الآن على الزواج في « الشريعة » .. ونبدأ بأن حواء قد كانت زوج آدم في الحقيقة : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » .. ففى هذا المقام فان النفس الواحدة هى نفس آدم ، الإنسان الكامل ، الذى أقيم مقام الخلافة .. وانما كانت حواء زوج آدم ، فى هذا المقام ، لأنها تنزل عنه .. « وخلق منها زوجها » .. فهى انبثاق نفسه عنه خارجه ، كما عبرنا آنفا .. ثم انه لما كان آدم أول رسول شريعة ، من رسل التوحيد ، فقد أراد الله له ، ولزوجته ، ان يكونا زوجين في الشريعة .. ومن أجل ذلك فقد نهاه ان يتصل بها قبل ان تحلل له بالشريعة .. والى ذلك الإشارة بقوله : « ولا تقربا هذه الشجرة ، فتكونا من الظالمين » .. وقد جماعت هذه الإشارة في سياق هو في غاية الأمتاع ، والروعة .. يقول تعالى فيه : « ويا آدم اسكن ، أنت وزوجك ، الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما ، وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما : انى لكما لمن

الناصحين * فدلّاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما : ألم أنهما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكم ان الشيطان لكما عدو مبين ؟ * قالوا : ربنا ظلمنا انفسنا ، وان لم تغفر لنا ، وترحمنا : لنكونن من الخاسرين * قال : اهبطوا !! بعضكم لبعض عدو .. ولكم في الأرض مستقر ، ومحتاج الى حين * قال فيها تحيون ، وفيها تموتون ومنها تخرجون * يا بنى آدم !! قد انزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى .. ذلك خير .. ذلك من آيات الله .. لعلهم يذكرون * يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان ، كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما .. انه يراكم ، هو ، وقبيله من حيث لا ترونهم .. انا جعلنا الشياطين اولياء للذين لا يؤمنون » ..

لقد أوردنا هذه الآيات الكريمات في كتابنا : « الرسالة الثانية من الاسلام » ، في باب الحديث عن الحجاب .. وأوردنا الآية الأولى منها في باب الحديث عن خطيئة آدم .. وتحدثنا شيئا يسيراً عن الشرح .. ونحن نورد هذه الآيات الآن في باب الحديث عن الزواج في الشريعة . وقد نتحدث فيها بشيء يسير من التبسيط .. بقوله « ويا آدم » يعنى الخليفة ، يعنى الإنسان الكامل « أسكن ، انت وزوجك » ، يعنى زوجك في الحقيقة « الباطنة » ، والتي سيتم اقترانك بها في شريعتك « الظاهرة » فتطبق بذلك الصنيع شريعتك ، وحقيقتك .. وظاهرك ، وباطنك .. ولكن قبل ان يتم هذا الاقتران الشرعى يجب ان لا تقربها ، وقد وردت الإشارة اللطيفة الى ذلك بقوله : « ولا تقربا هذه الشجرة » فانكما ان تقعلا ، تكونا من « الظالمين » ، المعتدين على حد الشرع .. وهذه اشارة الى أول الشرائع ، التي بدأ الإنسان يرتفع بها في مراقى النفوس ، وجاءت منظمة للغريزة « الجنسية » .. وهى طرف من الغريزة الوحيدة — غريزة « الحياة » وخادمتها الأولى .. وبهذا التنظيم نهض التكليف ، الذى به ارتفع الانسان عن الحيوان ، فخرج من النفس

الأمانة ودخل مرتبة النفس اللوامة .. « الشجرة » هنا لها درجات من
 المظاهر .. أولها ، وأدناها لآدم ، نفسه التي بين جنبيه .. ثم هي ، في تنزلها
 عنه ، شهوة نفسه هذه الى الجنس .. ثم هي حواء .. ثم هي شجرة التين ..
 فان شجرة التين انما هي رمز النفس الأمانة .. وانما نهى عنها لئلا تقوى
 بأكلها نفسه الحيوانية فتتكثف وتغلظ فلا تطيعه على التصعد باتباع الأمر
 الشرعى ، وأجتناب النهى الشرعى ومن أجل هذه الحكمة ، نفسها ، نهينا ، نحن
 المسلمين ، عن أكل الدم المسفوح ، لأنه هو النفس ، واذا ما أكلناه اصفنا نفسا
 الى نفس ، غتطـورنا في الكثافة بدلا من اللطافة .. وتسفلنا ، وأخلدنا الى
 الأرض ، بدلا من الترفع والتسامى .. وهو أيضا ما من أجله حرم علينا لحم
 الخنزير .. فان الخنزير ، بما جبل عليه من أخلاق الحرص والشره ، هو أيضا
 رمز النفس الأمانة .. ومن هذا الباب يجىء تحريم ما أهل لغير الله
 به .. وكذلك تحريم الميتة : « قل لا أجد ، فيما أوحى الى ، محرما على طاعم
 يطعمه ، الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحما خنزير ، فانه رجس ، أو فسقا
 أهل لغير الله به .. فمن أضطر غير باغ ، ولا عاد ، فان ربك غفور رحيم »
 فشجرة التين هي الشجرة المعنية في الظاهر ، فلما وقع الخلاف بأكلها تلاحقت
 حلقات السلسلة ، حتى وقع الخلاف بالمماسه .. فتغشى زوجه بغير شريعة ..
 وحلقات هذه السلسلة المتلاحقة طويت في عبارة : « فلما ذاتا الشجرة بدت
 لهما سوآتهما » .. والأشارة بقسوله : « بدت لهما سوآتهما » ، انما هي
 للأعضاء التناسلية .. فقد كانت محجوبة عنهما بنور البراءة ، والتقوى فظورت
 بظلام الأثم ، والمخالفة .. قوله « وطفقا يخصفاً عليهما من ورق الجنة » ،
 إشارة الى الحجاب ، الذى أملاه الخزي الذى صاحب الخطيئة .. وقد تحدثنا
 عن ذلك في موضعه من كتابنا « الرسالة الثانية من الإسلام » تحت عنوان
 « الحجاب ليس اصلا فى الإسلام » .. والذى يهمنا من هذه الآيات التي
 أوردناها فى هذا الباب هو سياقها فى نفسه .. وشرح ما به الإشارة الى

الزواج في الشريعة .. فلنكتف بهذا القدر ..

ونقرر هنا أن شريعة آدم فردية .. وهي طرف من حقيقته .. وإنما وقعت خطيئته بمخالفة شريعته لقرب ما بين شريعته وحقيقته .. وعندما يسترد مقام الخلافة ، الذي فقد بالخطيئة تنطبق شريعة وحقيقة من يسترده ، وتكون زوجه في « الحقيقة » هي زوجه في « الشريعة » .. ومن هذا المقام جاء النص ، في أصل الدين ، على الزوج الواحد .. فليس في أصل الدين إلا هذه .. ثم تنزلت الشريعة ، من أصل الدين إلى فرعه ، فجاء تعدد الزوجات .. فالشريعة ، على ذلك ، شريعتان .. شريعة في الأصل ، وشريعة في الفرع ..

الزواج في شريعة الأصول :-

هناك شريعة تقوم على أصول الدين ، ومتعلقها آيات الأصول نهي منها تتبعت وعليها تستند .. والزواج ، في هذه الشريعة ، يقوم على الكفاءة بين الرجل والمرأة .. الزواج هنا إنما هو ترسيم للعلاقة القائمة في « الحقيقة » .. زوجتك فيه هي صنو نفسك .. ويمكن تعريف الزواج هنا بأنه شراكة بين شريكين متكافئين ، ومتساويين في الحقوق ، والواجبات ، لا تقع فيه وصاية من الرجل على المرأة ، ولا من المرأة على الرجل ، فليس هناك وصاية على أيهما فيه إلا وصاية يفرضها على كليهما القانون الدستوري .. هما يملكان الدخول في هذه الشراكة بالأصالة عن نفسيهما ، وبمطلق اختيارهما ، ولهما الحق « المتساوي » في الخروج عنها ، .. فهما يتفقان ، حين يتفقان ، فتكون المحبة ، والمودة ، والوفاق ، والسعادة .. وهما يتفقان ، حين يختلفان — يتفقان على أن يختلفا — فيكون نقض الشراكة ، من غير أن يترك مرارة ، ولا عدا .. فيمارس حق الطلاق في سعة أفق ، وطيبة نفس ، ليدخل كل منهن الشريكين في تجربة جديدة ، مع شريك جديد ، عسى أن يهتدي بهذه التجربة الجديدة لصنوه الحق ، أو إلى قريب منه ، فلا تكون ، يومئذ ، بهما حاجة إلى

ممارسة حق الطلاق ، وانما هو الوفاق ، والمحبة ، والسعادة ..

والحكمة في شريعة الطلاق انما هي تصحيح الخطأ الذى كثيراً ما يقع
نتيجة لعدم المقدرة على ، العثور على ، أو التمييز بين ، الشريك الحقيقى ،
والشريك الذى قد يشبهه ، ثم لا يكون ايلم .. وهذا العجز ، بفضل الله ،
يتناقص دائماً ، وتحل محله القدرة ، وذلك كلما ترقى الرجال ، والنساء ، وكلما
قويت لديهما الأنوار التى بها يكون التمييز ، وتقع المطابقة .. من ههنا تنهض
حكمة شريعة الطلاق ..

الزواج ، فى هذه الشريعة ، هو حظ العارفين ، الذين يتسامون به الى
مستويات لا تدخلها معهم شريعة الطلاق .. لا لأنهم يمنعونها ، بالطبع ، ولكن
لأنهم لا يحتاجونها .. وقد بينا كل هذا فى تفصيل واف فى كتابنا « الرسالة
الثانية من الأسلام » تحت عنوان « الطلاق ليس أصلاً فى الانسلام » ..
فى هذا الزواج ليس هنالك ولى ، ولا مهر .. وليس فيه تعدد زوجات ..
والطلاق فيه حق من حقوق المرأة ، كما هو من حقوق الرجل .. ودخل الاسرة
يملكه الشريكان ، حتى حين يكون عمل المرأة قد استغرقه « البيت » .. فليست
النفقة مئة من الرجل على المرأة ..

الزواج فى شريعة الفروع ..

شريعة الفروع هى موضوع الرسالة المحمدية .. ومعلقها آيات
الفروع .. فهى تنبعث منها ، وتعتمد عليها .. وشريعة الفروع شريعة
مرحلية .. الحكمة منها نقلة المجتمع المتخلف ، الذى فزلت عليه ، ليتقدم ، حتى
يستحق شريعة الأصول .. والحركة منها نحو شريعة الأصول ، حين يحين
حينها ، هو الذى نسميه تطوير التشريع الإسلامى .. ومستوى شريعة الفروع
هو مستوى الرسالة الأولى .. ومستوى شريعة الأصول هو مستوى الرسالة
الثانية من الأسلام ، وهى الرسالة التى وظفنا حيلنا على التبشير بها ،

والتمهيد لها ، والدعوة إليها ..

الزواج ، في هذه الشريعة ، في تعريف بعض الفقهاء ، : « عقد يفيد حل استمتاع كل من العاقلين بالآخر ، على الوجه المشروع » .. أو انه : « عقد يرد على ملك المتعة قصدا » .. وهذا تعريف ، في الفقه ، وهو قاصر عن التعريف ، في الشريعة .. ومعروف قصور الفقه عن سماحة الشريعة ..

الزواج ، في هذه الشريعة ، هو عقد بين طرفين ، غير متكافئين ، يملك فيه الطرف الراجح منهما حقوقاً أكثر مما يملك الطرف المرجوح .. والسبب في رجحان حقوق الطرف الراجح ، انما هو رجحان عقله ، ودينه ، ومن ثم ، كثرة واجباته .. ولقد اشتملت على بعض هذه الحقوق هذه الآية الكريمة : « الرجال قوامون على النساء .. يما فضل الله بعضهم ، على بعض .. وبما أنفقوا من أموالهم .. فالصالحات قانتات ، حافظات للغيب ، بما حفظ الله .. واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن ، وأهجروهن في المضاجع ، وأضربوهن .. فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا .. ان الله كان علياً كبيراً » .. فالعلاقة فيه بين الرجل والمرأة ليست علاقة تكافؤ ، ولا هي علاقة تسلط ، وانما هي علاقة رشيد جمع وصياً على قاصر ، وطلب منه ان يعينه على الرشيد .. ولقد جاءت الفاصلة ، في الآية الماضية ، بقوله ، تبارك ، وتعالى : « ان الله كان علياً كبيراً » ، لتتضمن هذا المعنى .. فلكانه قال : جعلنا لكم عليهن علو درجة ، فتذكروا ان علو الدرجات لله .. فان حسدتكم نفوسكم بالاستعلاء عليهن ، والتسلط ، ومعاملتهم بغير دوافع العطف ، والحكمة ، وتوخي الترشيذ ، فاعلموا : ان الله هو صاحب العلو ، والاعتدار ، والسلطة .. اعلموا ذلك واخشوه فيهن ان كنتم مؤمنين .. والغرض ، من هذا العقد ، هو تنظيم الغريزة « الجنسية » لمصلحة الأفراد ، ولمصلحة الجماعة .. فأما لمصلحة الأفراد — الرجل ، والمرأة — فباعفاف النفس ، وبصون الأخلاق .. ثم ان به الحب ينمو ، والطمأنينة تتوثق ، والراحة النفسية تتوفر ، قال تعالى فيه : « ومن آياته ان خلق لكم ، من

أنفسكم ، أزواجاً ، لتسكنوا اليها .. وجعل بينكم مودة ورحمة .. ان في ذلك
آيات لقوم يتفكرون » .. كل أولئك يكون ، بفضل الله ، ثم بفضل الأمتاع
الحسى ، والمعنوى .. وأما لمصلحة الجماعة — وحظ الأفراد هنا غير غائب —
فبحفظ النوع ، وبقيام الأسرة ، التى هى الدعامة الأولى للمجتمع ، وبالاهتمام
بالذرية ، الذى يسوق الى تعليمها ، والى تهذيبها ، والى استشعار المسئولية
فحواها التى توجب السعى ، والكدح ، اللذين ، بهما قوام التعمير ، والتمدين ،
لجميع الأمة ..

هذه الشريعة ، اذا ما وضعت فى موضعها من حكم وقتها هى غاية فى
الانضباط ، والحكمة ، والعدل ، والسماحة .. وهى قد حررت المرأة ، يومئذ ،
تحريراً كبيراً .. وقفزت بها قفزة حكيمة ، وبجريئة ، فى آن معا .. وهى لا يظهر
فيها النقص الا اذا ما نقلت من وقتها ، وطلب اليها ان تستوعب طاقات المرأة
المعاصرة ، فتنظم حقوقها ، وتحل مشاكلها .. ولكن لن يكون النقص ، حينئذ ،
هو نقص هذه الشريعة ، وانما هو نقص هذه العقول التى تنقلها من بيئتها الى
بيئة لم تشرع لها ، بدعوى ان الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان ..
ولقد تحدثنا فى مواضع كثيرة فى كتبنا ، عن هذه الجهالة ، مما يغنينا عن
التعرض لها الآن .. والذى يهمنا ان نقرره ، فى هذا المقام ، هو ان هذه
الشريعة مرحلية .. وكل حقوق ، اعطيت بها للرجل على المرأة ، انما هى امانة
عنده ، كآمانة الوصى على حقوق اليتيم ، يطلب منه ان يرشده ، وان يرد اليه
حقوقه حين يبلغ الرشد ..

جميع آيات الوصاية على النساء منسوخة ، منذ اليوم ، بآية : « ولهن
مثل الذى عليهن بالمعروف .. وللرجال عليهن درجة .. » .. ولقد سبق شرح
هذه الآية .. فلا موجب للاعادة ..

وجميع آيات الوصاية ، على الرجال ، وعلى النساء ، منسوخة ، منذ
اليوم ، بآيتى : « فذكر انما انت مذكر * لست عليهم بمسيطر » ..

وجميع آيات الرأسمالية ، في القرآن ، منسوخة بآية : « ويسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو » وللعفو قمة ، وله قاعدة .. وستظل قمته متروكة لمنطقة الأخلاق .. وانما تهمنا قاعدته لأنها أدنى منازل الاشتراكية ، وهى تحريم ملكية وسائل الانتاج ، على الفرد الواحد ، أو على الافراد القلائل .. وبهذا يفتح الطريق لتطوير التشريع ، الذى عليه تقوم الرسالة الثانية من الإسلام .. وهى الرسالة التى تقوم على تحقيق الفردية ، لكل رجل ، ولكل امرأة .. وتتوسل الى منازل الفردية هذه بوسيلتين : احدهما وسيلة المجتمع الصالح ، وهو المجتمع الذى يقوم على التشريع الدستورى ، المستمد من الدستور الإنسانى ، الذى ، تحت ظله ، يتحقق الجمع بين الاشتراكية ، والديمقراطية ، فى جهاز واحد ، حتى لكأنهما ، للمجتمع ، الجناحان للطائر ، لا نهضة له بدونهما معا .. وثانيتها وسيلة المنهاج التربوى الذى جاء به الإسلام ، فى عبادته ، والذى يسوقنا ، باتقان تقليدنا للمعصوم ، من التقليد الى الأصالة — من السير فى القطيع الى البروز الى مقام الفردية — من العباداة الى العبودية .. من القيد الى الحرية .. والحرية المطلقة ، فى ذلك .. ومقام الفردية هذا هو أصل أصول الدين .. وهو ، من ثم ، مطلوب الدين الأخير ، لأنه مقام العبودية .. وهو المقام الذى تتأدى اليه جميع المناشط فى العلم — العلم بالشرعية المشرفة — وفى العمل ، وفى الذكر ، وفى الفكر ، وفى العلم — العلم بالله العظيم — وفى الفناء عن هذا العلم .. ومقام العبودية هذا هو مقام شريعة وحقيقة .. ولكن الشريعة فيه شريعة فردية ، يخرج بها المحقق من شريعة القطيع .. ويؤتى شريعته الفردية من الله كفاحاً ..

مقام العبودية هذا مقام حياة .. حياة بالله ، عند الله .. وهو نهاية المطاف ، وما للمطاف نهاية .. « ان المتقين فى جنات ، ونهر ، فى مقعد صدق ، عند مليك مقتدر » .. عند الله ، حيث لا عند .. نهاية المطاف .. وما للمطاف نهاية .. لأنه سير الى الأطلاق .. فهو تجدد ، مستمر وسرمدى ، لحياة

الفكر ، وحياة الشعور ..

تداخل الشريعتين وانفتاحهما على بعضهما :-

يحسن أن نقرر ، وبصورة حاسمة ، في هذا الموضع ان هناك شريعتين ..
الشريعة السلفية ، وهى شريعة الرسالة الأولى .. والشريعة الجديدة ، وهى
شريعة الرسالة الثانية من الإسلام .. والاختلاف بين الشريعتين انما هو
اختلاف مقدار .. فشريعة الرسالة الأولى قاعدة ، وشريعة الرسالة الثانية
خطوة نحو قمة الهرم الذى قاعدته شريعة ، وقمته أخلاق .. وهذه الصورة
الهرمية تعطى انطبعا ، واضحا ، بأن شريعة الرسالة الأولى ليست منغلقة ،
وانما هى منفتحة على شريعة الرسالة الثانية .. ثم ان هناك تداخلا بينهما
يجعل بعض صبور شريعة الرسالة الأولى لاتزال صالحة في عهد الرسالة
الثانية .. مثال ذلك ، شريعة العبادات ، وشريعة الحدود ، وشريعة
القصاص .. وانما يجىء استمرار صلاح هذه ، من أسباب أوردناها في
موضعها من كتابنا : « الرسالة الثانية من الإسلام » .. فليراجع .. أما بقية
شريعة المعاملات ، فى السياسة ، وفى المال ، وفى الاجتماع ، فان كثيرا من
صورها قد خدم غرضه — خدمه حتى استنفده — وأصبح تطويره أمراً
واجباً .. ونكرر ان التطوير ليس قفزاً عبر الفضاء .. لا !! ولا هو قول
بالرأى النج .. وانما هو انتقال من نص فرعى ، الى نص أصلى ، فى القرآن ،
وعلى هدى فهم أسرار الدين .. وفيما نحن بصدد من شريعة الأحوال
الشخصية فان هناك ركنين من أركان الزواج الأربعة لا تزال لهما الصلاحية
التي بها يدخلان عهد الرسالة الثانية ، وبنفس القدر ، ان لم يكن بأوكد ، من
الأهمية .. هذان الركنان هما الشاهدان ، والمحل .. ويراد بالمحل خلو الربط ،
وخلو المرأة ، من الموانع الشرعية من اقترانهما .. وأما الركنان الباقيان ،
المتهمان لأربعة الاركان وهما الولي ، والمهر فانهما لا يؤذن لهما بدخول العهد
الجديد ، الا بتطوير .. وهما من الامثلة الجيدة لانفتاح شريعة الرسالة الأولى،

على شريعة الرسالة الثانية من الاسلام .. ففى حالة الولى ، فانه يسقط سقوطاً تاماً ، فى شريعة الرسالة الثانية من الاسلام .. وانما يجىء سقوطه ضمن سقوط الوصاية ، حيث العهد عهد مسئولية ورشاد .. فالوصاية ، على الرجال والنساء على حد سواء ، للقانون الدستورى .. فمن يحسن منهما التصرف فى حريته ، تحت ظل هذا القانون ، فلا سبيل عليه .. فانه : « ما على المحسنين من سبيل » .. وقد كان هذا الولى ، فى شريعة الرسالة الاولى ، غير ضرورى ، عند السادة الحنفية ، مثلاً .. فان غدهم أن المرأة يمكنها أن تكون ولية أمر نفسها فى الزواج ، بل ويمكنها أن تكون ولية أمر غيرها فيه .. ولا يشترط فى تصرفها الا ان تزوج نفسها ، أو غيرها ، للكفو ، بمهر المثل .. فانها ان فعلت ، فلا سبيل لوليها الى الطعن على تصرفها .. فانه ان يفعل ، يكن ولياً عاضلاً .. وهذا وصف يسقط حقه فى الولاية عليها : « واذا طلقتم النساء ، فبلغن أجلهن ، فلا تعضلوهن ان ينكحن أزواجهن ، اذا تراضوا بينهم بالمعروف .. ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله ، واليوم الآخر .. فلكم أزكى لكم ، وأطهر ، والله يعلم ، وانتم لا تعلمون » ..

وقد قرر السادة الحنفية فى الكفاءة انها تكون فى امور ستة : الاسلام ، والدين ، والحرية ، والنسب ، والمال ، والحرفة .. وستسقط كل هذه الأمور ، فى شريعة الرسالة الثانية ، ولا يظل منها قائماً غير الدين ، والنسب .. والأمر الذى يهمنى من رأى السادة الحنفية هو أنه ، فى الشريعة السلفية ، هناك حوالة على القانون ، ليكون قائماً مقام الولى .. وهذا ما قصدناه حين قلنا بانفتاح الشريعة السلفية — شريعة الرسالة الاولى — على الشريعة الجديدة — شريعة الرسالة الثانية من الاسلام .. ويجىء الحديث عن الركن الرابع ، وهو المهر .. وهذا ، فى شريعة الرسالة الثانية من الاسلام ، وبقيته المادية المعروفة ، يسقط سقوطاً تاماً .. ذلك بانه انما هو ممثل لثمن شبراء المرأة ، حينما كانت تشتري فى الماضى ، فى عهد هوائها ، فليس له ، فى عهد عزها ،

مكان .. فليس للمرأة منذ اليوم ثمن وانما هي شريكة زوجها في علاقة متكافئة .. هي ، كلها ، لزوجها ، وزوجها ، كله ، لها .. حقوقهما متساوية .. وواجباتهما متساوية .. » (لهن مثل الذي عليهن بالمعروف .. وللرجال عليهن درجة) .. وهذا المهر المادى ، نفسه ، فى الشريعة السلفية ، ليس بـ كبير الأهمية .. فهو ليس شرط صحة فى الزواج .. ذلك بان الزواج يصح بغير مهر ، على الإطلاق .. ويصح بمهر متناه فى القلة .. وقد زوج النبى بـ بعض آيات القرآن ، وزوج بلا مهر ، على الإطلاق .. اما تزويجه ببعض آيات القرآن : « فعن سهل بن سعد ان امرأة جاءت الى رسول الله فقالت : يا رسول الله !! جئت لأهب لك نفسى .. فنظر اليها رسول الله ، فصعد النظر اليها ، وصوبه .. ثم طأ رأسه .. فلما رأت المرأة انه لم يقض فيها شيئاً جلست ، فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله !! ان لم تكن لك بها حاجة ، فزوجنيها .. فقال هل عندك من شئ ؟؟ قال : لا والله يا رسول الله !! قال : اذهب الى أهلك فانظر ، هل تجد شيئاً ؟؟ فذهب ، ثم رجع ، فقال : لا والله يا رسول الله !! ما وجدت شيئاً .. قال انظر !! ولو خاتماً من حديد .. فذهب ، ثم رجع ، فقال : لا والله ، ولا خاتماً من حديد ، ولكن هذا ازارى فلما نصفه .. فقال رسول الله : ما تصنع بأزارك ؟؟ ان لبسته لم يكن عليها منه شئ ، وان لبسته لم يكن عليك منه شئ .. فجلس الرجل حتى طال مجلسه ، ثم قام فرآه رسول الله مولياً .. فأمر به ، فدعى .. فلما جاء قال : ماذا معك من القرآن ؟؟ قال : معى سورة كذا ، وسورة كذا ، وعددها ، قال : أتقرؤهن عن ظهر قلبك ؟؟ قال : نعم !! قال : اذهب !! قد ملكتها بما معك من القرآن .. وفى رواية زوجتكها بما معك من القرآن » رواه الخمسة ..

واما تزويجه بغير مهر ، على الإطلاق ، فعن عقبة ابن عامر ، ان النبى قال لرجل : « أترضى ان ازوجك فلانة ؟؟ قال : نعم !! وقال للمرأة : أترضين ان ازوجك فلاناً ؟؟ قالت نعم !! فزوج احدهما صاحبه .. فدخل بها ، ولم

يفرض لها صداقاً .. ولم يعطها شيئاً ، وكان ممن شهد الحديبية وكان من شهد الحديبية له سهم بخيبر .. فلما حضرته الوفاة قال : ان رسول الله زوجنى فلانة ، ولم افرض لها صداقاً ، ولم أعطها شيئاً ، وانى اشهدكم انى اعطيتها من صداقها ، سهمى بخيبر .. فأخذت سهماً ، وباعته بمائة الف درهم » .. رواه أبو داود ..

ما هنا سقط المهر ، فى الشريعة السلفية ، وهذا هو ما عنيناه ، أيضاً ، بانفتاحها على شريعة الرسالة الثانية من الاسلام .. حيث يترجم المهر المادى الى مهر معنوى ..

من كل هذا الاستقرار ، يتضح لك قرب ما بين الشريعتين ، حتى ان التطوير ، من مستوى الشريعة السلفية ، الى مستوى الشريعة الجديدة ، لا يكاد يكون ذا بال .. ومع ذلك فهو فى غاية الأهمية ، لانه يقرر مسائل كانت فى منطقة الخلاف ، كمسألة الولى ، وكمسألة المهر ، تقريراً نهائياً ، يعطيها صورة واحدة ، يجرى عليها العمل ، فى مستأنف أمر الزواج ..

الطلاق ..

لما كانت مرحلة الوصاية فى الاسلام (وصاية النبی على الأمة بمقتضى آية الشورى .. ووصاية الرجال على النساء بمقتضى آية القوامه) مرحلة انتقال ، سببها قصور الأمة عامة ، وقصور النساء ، بخاصة ، عن شأو المسئولية .. والمراد منها ان تنهى فترة انتقال ، خلالها يرشد الأوصياء القصر ، حتى يبرزوا الى مقام رشدهم ، وعزهم .. حيث يكونون مسئولين عن حسن تصرفهم أمام القانون .. كانت حقوق القصر أمانة عند الأوصياء .. مثل النساء ، فى ذلك ، مثل الأيتام .. قال تعالى : « وابتلوا اليتامى ، حتى اذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ، ولا تأكلوها اسرافاً ، وبداراً ان يكبروا .. ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف .. فاذا

دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم .. وكفى بالله حسيباً .. » .. والقرينة بين اليتامى وبين النساء هي السر في قرنهن بهم في قوله تعالى : « وان خفتن الا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى ، وثلاث ، ورباع .. فان خفتن الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم .. ذلك أدنى الا تعولوا .. » .. ولقد قال في موضع آخر : « وآتوا اليتامى أموالهم » وكفى بالمال عن جميع الحقوق ، وأهمها حقهم على الأوصياء في النصح ، والتربية ، والترشيد .. وقال : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » .. وكفى بالصدقات عن جميع الحقوق التي لهن ، على الأوصياء ، من النصح ، والتربية ، والترشيد .. والأوصياء هنا هم الأزواج .. ومن حسن الترشيح للزوجات اعدادهن ليبلغن مرتبة النصح التي بها يشاركن أزواجهن في حقوق ، وواجبات الزوجية ، مشاركة الأكفاء .. ومن حقوق ، وواجبات ، الزوجية الدخول فيها بكامل الاختيار .. والخروج منها بكامل الاختيار أيضا .. وهذا هو الطلاق .. فالطلاق حق ، في أصل الدين ، للنساء ، كما هو للرجال .. ولكن حق النساء ، في الشريعة ، في المرحلة ، قد أئتمن عليه الرجال .. ولقد ذهل عن هذه الحقيقة علماء الإسلام ، لما ذهلوا عن ان الشريعة السلفية انما هي مرحلية ، وليست الكلمة الأخيرة ، التي يريدونها الدين ..

ويجب ان يكون واضحاً ، فان حق النساء في الطلاق لا يلتمس في نصوص آيات الطلاق .. ذلك بأن جميع هذه الآيات انما هي آيات مدنية .. وهي من ثم ، فروع .. وفروع القرآن هي عمدة شريعة الرسالة الأولى .. في حين أن عمدة شريعة الرسالة الثانية انما هي أصول القرآن .. وقد استفاد حديثنا عن ذلك ..

تعدد الزوجات :-

لا هراء !! فان شريعة الأصول تمنع التعدد ، في معنى ما تطالب

بالعدل .. والعدل يستحيل بين زوجتين .. دع عنك أربعاً .. وإنما جاء تعدد الزوجات في شريعة الفروع ، حيث كانت هي صاحبة الوقت ، في القرن السابع .. ولم تكن حكمة التشريع ، يومئذ ، لتسمح بشريعة الأصول .. ذلك بأنها فوق طاقة المجتمع ، وفوق حاجته ، أيضاً .. ولا تستقيم حكمة بوضعها هذا الموضع .. ولقد اعتبرت شريعة الأصول مدخرة ليومها ، ولقد جاء هذا اليوم بمجىء مجتمعنا هذا الكوكبي الذي يسعى لإقامة الحكومة العالمية التي تقوم على الدستور الانساني ، وتنظم علائقها بالقانون الدستوري .. ولقد كانت شريعة الفروع ، وهي شريعة الرسالة الأولى ، متأثرة ، في حكمة ، برواسب الماضي ، الذي كان عليه المجتمع الجاهلي ، حيث كانت المرأة ، لا تملك حق الحياة ، بله حق الحرية ، والمساواة .. لم تكن تواعد حياة ١١ : « واذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت ١٢ » وكان تعدد الزوجات في العهد الجاهلي وسيلة شائعة من وسائل استغلال النساء فكان الرجل يتزوج العشر ، والعشرين امرأة ، يستخدمهن ، ويستولدهن .. فلم يكن ليستقيم ، اقتصادياً ، ولا اجتماعياً ، ولا سياسياً .. لم يكن ليستقيم مع الحكمة ، بأي وجه من الوجوه ، ان يجيء التشريع يحدد من التعدد ، الى الواحدة .. ويحاول التسوية في الحقوق ، والواجبات ، بين الرجال ، والنساء .. فقد كانت الحكمة تستقيم مع التدرج ، ومع اعداد فترة انتقال تنهياً فيها المرأة لممارسة حقوقها ، في المساواة ، وينتهياً فيها المجتمع ، اقتصادياً ، وسياسياً ، واجتماعياً ، للأسماح بهذه الحقوق .. وكذلك جاء تفضيل الرجال على النساء ، في هذه الشريعة ، فجعلت المرأة على النصف من الرجل ، في الشهادة ، وفي الميراث ، وعلى الربع منه في الزواج .. وكل هذه إنما هي امور عرضية ، زائلة ، بزوال أسبابها .. ويومئذ ينتقل التشريع الى المساواة .. وفيما نحن بصدد تعدد الزوجات ، يقول القرآن : « وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ، فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى ، وثلاث ، ورباع .. فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكته

آيمانكم .. ذلك ادبى الا تعولوا » ..

ولما كانت شريعة التعدد هى الشريعة الحكيمة لذلك الوقت لأسباب ذكرناها ، فى غير هذا الموضع ، من هذا الكتاب ، فقد جاءت السنة بتحسين العدل فى قوله : « فان خفتهم ألا تعدلوا » فأصبح « العدل » اصطلاحاً قاصراً على العدل فى القسمة ، ومتجاوزاً عن ميل القلوب .. وقد جاءت السنة ، بهذا التقييد للعدل ، من قوله تعالى : « ولن تعبثطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم .. فلا تميلوا ، كل الميل ، فتذروها كالمعلقة .. وان تصلحوا وتتقوا ، فان الله كان غفوراً رحيماً » .. فكأنه تجاوز عن بعض الميل — « فلا تميلوا كل الميل » ، وانما تجاوز ليجعل شريعة التعدد ممكنة ، وهى شريعة قد كانت ضرورية لذلك الوقت .. والتجاوز عن بعض الميل أخذ بأخف الضررين .. وهو يستقيم فى المرحلة ، ولا يستقيم عند التمام ، وفى النهاية ومن ثم ، فان أصول الدين لاتقر التجاوز عن بعض الميل ، وانما هى تطالب بالعدل التام ، وبالمساواة التامة .. وفى هذه الأصول ، فان قوله : « فان خفتهم ألا تعدلوا فواحدة » يصبح قولاً حاسماً فى النهى عن التعدد .. ذلك لأن العدل فى مستوى الأصول سيفتقل من كونه عدلاً فى القسمة ، كما كان فى مستوى الفروع ، ليصبح عدلاً فى ميل القلوب .. ولا مشاحة فى أن القلب لن يعدل فى ميله بين اثنين .. فلم يبق الا واحدة ..

النفقة :

الانفاق على الزوجة سبب من أهم الأسباب التى نهضت عليها قوامه الرجل على المرأة .. قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم » ولقد ظن بعض الناس ، وحق ما ظنوا ، أن المرأة لن تكون كريمة ، فى حياتها ، الا اذا كانت مستقلة اقتصادياً .. وخير فرص النساء ، جميعهن ، فى الاستقلال الاقتصادى لا تتحقق الا بالتنظيم

الاجتماعى ، الذى يعيد تقويم الانتاج ، حتى تدخل المرأة ، الام المنجبة ،
والربية للأطفال ، أعلى مراتب التقدير بين جمهرة المنتجين .. وذلك هو ما
عجزت عنه الاشتراكية ، المادية ، القائمة اليوم .. وذلك ايضاً ما أسلفنا اليه
الإشارة ، فى موضع آخر ، من كتابنا هذا ..

لقد سبق أن قررنا ، ونكرر هنا ، أن النساء لا فرصة لهن فى الكرامة ،
والمساواة ، الا فى عهد الديمقراطية ، والاشتراكية ، فى المستوى الإنسانى ،
الذى اشتمل عليه القرآن ، حيث الفرد ، من رجل وامرأة ، هو الغاية من كل
سمى الحياة .. ولقد سبق أن قررنا ، ونكرر هنا ، أن هذا المستوى من شمول
الادراك ، قد عجزت عنه جميع الفلسفات الاجتماعية ، وفى طليعتها
الماركسية .. وأنه لم يتوفر عليه غير القرآن ..

ان الانتقال ، بالتطور الواعى ، الوئيد ، الرشيد ، من آية القوامة :
« الرجال قواهم على النساء ، بما فضل الله ، بعضهم على بعض ، وبما انفقوا
من أموالهم .. » ، الى آية المسؤولية : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ..
وللرجال عليهن درجة » ، ولا يتم الا بانتقال المجتمع انتقالاً تاماً ، يتخلص فيه
تشريعه من رواسب مجتمع الغابة .. ولقد سبق أن قررنا ، ونكرر هنا ، أن
شريعتنا السلفية متأثرة ، تأثراً حكيماً ، ورشيداً ، برواسب مجتمع الغابة ..
ولقد يظهر ذلك فى أمرين ، من جملة أمور .. هذان الأمران هما الوصاية فى
السياسة ، والراسمالية فى الاقتصاد .. ولقد أنى للمفكرين الإسلاميين أن
يستيقنوا أن آية الشورى ، انما هى آية وصاية ، وليست آية ديمقراطية ..
اكثر من هذا !! هى ناسخة لآية الديمقراطية .. وان آية الزكاة انما هى آية
راسمالية ، وليست آية اشتراكية .. اكثر من هذا !! هى ناسخة لآية
الاشتراكية ..

ان أهل المستضعفين اليوم وهم النساء ، والأطفال ، وسواد الرجال ، لا
ينهض على هذه الفروع ، وإنما هو ينهض على الأصول ، التى عليها تقوم

الديمقراطية ، والاشتراكية .. اذ بالديمقراطية تقوم المساواة أمام القانون ، وبالاشتراكية تقوم المساواة في الدخول .. ولقد تحدثنا عن كل أولئك بما يكفى .. والذي نحب أن نقرره هنا هو أن قوامة الرجال على النساء لا تنتهى الا بأنتهاء أسبابها .. وهى لا تنتهى أسبابها الا بمجىء عهد الديمقراطية ، والاشتراكية .. حيث تحال الوصاية على القانون الدستورى .. وتحال النفقة على الكفالة الجماعية .. وهى المعروفة اصطلاحاً «بالمساواة الاقتصادية» .. يومئذ لا تكون المرأة محتاجة لحماية الرجل ، ولا لوصايته ، ولا لنفقته .. لأن كل أولئك انما يجيئها من النظام الجماعى .. وبذلك يصبح المجتمع وسيلتها الكبرى لتحقيق ، بمنهاج الاسلام فى العبادة والمعاملة ، فرديتها ، تلك الفردية التى هى مطلوب الدين .. اولاً ، واخيراً .. ولقد اسلفنا الى ذلك الاشارة ..

خاتمة :

أما بعد فان هذه هى الخاتمة .. وهى خاتمة قد أفضينا اليها بعد تطوافه طويل ، مررنا فيه على القمم الشواهد من أصول الدين .. ونحن ، الآن ، وهنا ، على موعد مع احدى كبريات حقائق عصرنا الحاضر ، وتلك هى ان هدم الحضارة المادية ، العلمية ، الآلية ، العملاقة ، تواجه الدين — من حيث هو دين — بتحد لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية الطويل العريض .. ان هذه الحضارة «التكنولوجية» ليست رجسا من عمل الشيطان ، وانما هى من صنع العزيز الحكيم .. وحكمته وراءها لا تتفد .. ولكن من أجلها ، وأعظمها ، هذا التحدى الذى اخذت تواجه به الدين .. فان هذه الحضارة العلمية العملاقة قد استخدمت الآلة استخداما الغى الزمان والمكان الغاء يكاد يكون تاماً .. وكان من جراء ذلك ان توحد هذا الكوكب ، الذى تعيش فيه ، «جغرافيا» توحيداً جعل سكانه جيرانا .. والجوار بالأقطار كالجوار بالأبيات ، يقتضى طيب المعاملة ، وحسن الخلق ، وسعة التسامح .. ولقد كان المعصوم يوصى كثيراً بحسن معاملة الجار .. حتى لقد قال مرة : «ما زال جبريل يوصينى

بالجار حتى ظننت انه سيورثه » .. وحسن الجوار في مستوى الأقطار يتطلب حسن خلق من النسق العالى الذى لم يجىء الدين الا لتحقيقه .. وقد قال المعصوم مرة في ايجاز مهمته كرسول : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » فكانه قد قال : ما جئت الا لأتمم مكارم الأخلاق .. ومكارم الأخلاق ، جماعها ، وقمتها ، حسن التصرف في الحرية الفردية المطلقة .. وأيبر ذلك وأدناه الا يتعدى الفرد ، في قول ، ولا في عمل ، على حريات الآخرين .. ولا يتحقق هذا النسق السامى من حسن التصرف الا بقوة الفكر المروض بأدب شريعة الدين ، وأدب حقيقته .. وأنما من أجل ترويض الفكر على هذا النسق العالى من الصفاء ، والسلامة ، وسعة الإدراك ، نزل القرآن ، وشرعت الشريعة .. قال تعالى في ذلك : « وأنزلنا اليك الذكر ، لتبين للناس ما نزل اليهم .. ولعلمهم يتفكرون .. » .. قوله : « وأنزلنا اليك الذكر » ، يعنى القرآن جميعه ، في مستوياته الثلاثة : الفرقان ، والقرآن ، والذكر .. قوله : « لتبين للناس ما نزل اليهم » ، يعنى ماتدنى ، وتنزل ، الى مستوى فهمهم من سماء أصول القرآن ، الى أرض فروعه .. ولقد تحدثنا عن الأصول ، والفروع ، في هذا الكتاب ، وفي كتابنا : « الرسالة الثانية من الإسلام » ، بما يعنى عن الاعادة هنا .. والمتصود بالتبيين هنا ، من قوله : « لتبين للناس » .. انما هو التبيين بالشرح ، وبالتفسير ، والتبيين بالتشريع أيضا .. ثم قال « ولعلمهم يتفكرون » فأبان أن الغرض من انزال القرآن ، ومن تفصيل التشريع ، انما هو ترويض الفكر على الصفاء ، الذى هو وسيلة القلب الى السلامة .. ولاتتم « مكارم الأخلاق » الا بالفكر الصافى ، والقلب السليم .. الفكر الصافى من كدورة الأوهام ، والخرافات ، والأباطيل .. والقلب السليم من المخاوف ، التى جعلته بيتاً تعشش فيه سخائم الكراهية ، والحقد ، والحسد ..

ان التحدى الكبير الذى تواجه به حضارة « التكنولوجيا » العظيمة

الدين يتلخص ، جميعه ، فى كلمة « السلام » .. فان الأرض بهذه الحضارة قد توحدت ، كما أسلفنا القول .. وهذا الوطن الموحد يطلب الى سكانه ان يتوحدوا ، بصرف النظر عن مللهم ، وعن ألسنتهم ، وعن ألوان بشرتهم .. ولا يتم هذا التوحيد الا بتنمية ، وبتحرير ، المواهب المشتركة بين جميع البشر .. وما المواهب المشتركة بينهم جميعاً الا موهبة القلب ، والعقل .. وانما من أجل تنمية هاتين الموهبتين ، وعن أجل تحريرهما جاءت جميع الأديان .. وللأديان ، وبخاصة الإسلام ، مرحلتان : مرحلة « العقيدة » ، ومرحلة « العلم » .. فأما مرحلة « العقيدة » فانها تنشق للناس ولا تجمعهم .. والقاعدة فيها : « كل حزب بما لديهم فرحون » .. لا يجمع الناس الا مرحلة « العلم » .. فعلى (العقيدة) ، من ديننا ، قامت أمة « المؤمنين » .. وعلى (العلم) ، من ديننا ، تجىء أمة (المسلمين) .. وهذه هى الأمة التى ستنظم فى صفوفها سائر بشرية هذا الكوكب .. والى ذلك أشار تبارك ، وتعالى ، حين قال : « هو الذى ارسل رسوله ، بالهدى ، ودين الحق ، ليظهره على الدين كله .. وكفى بالله شهيداً » .. « الهدى » ، « النور » لهداية القلوب الى السلامة من الخوف .. « ما أصاب من مصيبة الا باذن الله .. ومن يؤمن بالله يهد قلبه » .. والله بكل شىء عليم .. و « الحق » ، « الحكمة » لهداية العقول .. (ولا تلبسوا الحق بالباطل ، ولا تكتموا الحق ، وأنتم تعلمون) .. وموهبتا القلب والعقل هما الموهبتان المشتركتان بين جميع البشر بصرف النظر عن مللهم ، والسنتهم ، والوان بشرتهم .. والى هاتين الموهبتين المشتركتين بين الناس ، أشار ، تبارك وتعالى ، بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله ، التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم .. ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .. « فطرة الله التى فطر الناس عليها » هما هاتان الموهبتان .. وقد سمي الاسلام « دين الفطرة » لعظيم أثره فى تحرير هذه الفطرة — القلب من المخاوف .. والعقل من الأباطيل .. وسبيله

الى ذلك انما هو « العلم » .. وهذا هو السر في أن الفاصلة في الآية جاءت بقوله تعالى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .. ومرحلة « العلم » في الإسلام تجيء بعد مرحلة « العقيدة » .. فأنما هما مرحلتان : مرحلة « العقيدة » على ثلاث درجات : الإسلام ، والأيمان ، والاحسان .. ومرحلة (العلم) على ثلاث درجات : علم اليقين ، وعلم عين اليقين ، وعلم حق اليقين .. وهذه ، وتلك ، تكونان ، بينهما ، ست درجات ، تتوج بالدرجة السابعة ، وهي « الإسلام » الذي هو دين الفطرة ..

هذا الإسلام هو الذي يواجه ، ممثلاً لجميع الأديان ، هذا التحدي الذي تواجه به هذه الحضارة الآلية ، العلمية ، المادية العملاقة ، جميع هذه الأديان .. والإسلام في هذا المحتوى ، وفي هذا المستوى — مستوى « العلم » — انما خوته أصول القرآن ، لا فروعه .. وهذا هو الأمر الذي حملنا على القول بتطوير الشريعة من الفروع ، الى الأصول ، ومن مستوى شريعة الرسالة الأولى ، الى مستوى شريعة الرسالة الثانية ..

ان هذا الإنسان المعاصر ، الذي ذهب الى القمر ، يجوس خلاله ، ويستكشف مجاهيله ، وأرسل مركباته بآلاتها الى كوكب المريخ ، ترسل صورته ، واضحة جلية ، هذا الانسان المتطلع الى المجهول ، الكف بالغيب ، الموكل بالقضاء الخارجى ، يجوب بآلاته آفاقه ، انما هو ، في خفية أمره ، يبحث عن نفسه ، وهو لا يشعر .. هو يبحث عن نفسه التى أضلها تحت ركाम الخرافات ، والمخاوف ، والأوهام ، والأباطيل ، عبر قرون لا حصر لها ، من تاريخه الطويل .. وسيظل يبحث عنها ، وسيجدها ، وسيتعرف اليها ، وسيكون في سلام معها .. وبهذا ، وبهذا وحده ، سيحقق السلام مع الأحياء الآخرين .. فانه ، مادام هو منقسماً على نفسه ، وعلى جهل بها ، وفي حرب معها ، فانه لن يعطى الآخرين سلاماً ، بل حرباً ، ذلك بأن فاقد الشيء لا يعطيه ..

في عهد فرعون موسى ، عندما كان الأمر الغالب على العصر هو السحر ،

فقد جاءت رسالة موسى بالحق بصورة بزت سحر السحرة ، وأبطلته ، فظنوه
 سحراً ، وما هو إياه ، وإنما هو يشبهه ، ويختلف عنه .. ولقد قص الله علينا
 من خبره ، فقال : جل من قائل : « ولقد أريناه آياتنا ، كلها ، فكذب ، وأبى »
 قال أجئتنا لتخرجننا من أرضنا بسحرك يا موسى * فلنأتينك بسحر مثله ،
 فأجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه ، نحن ولا أنت ، مكاناً سوى * قال :
 موعدكم يوم الزينة ، وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون ، فجمع كيده ،
 ثم أتى * قال لهم موسى : ويلكم !! لا تقفروا على الله كذباً فيسحقكم
 بعذاب .. وقد خاب من أفترى * ففتازعوا أدرهم بينهم ، وأسروا النجوى *
 قالوا : ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا
 بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ، ثم أتوا صفاً .. وقد أفلح اليوم من
 استعلى * قالوا : يا موسى إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى *
 قال : بل القوا .. فإذا جبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى *
 فأوجس في نفسه خيفة موسى * قلنا : لا تخف !! انك أنت الأعلى * والق
 ما في يمينك تلقف ما صنعوا .. إنما صنعوا كيد ساحر .. ولا يفلح الساحر
 حيث أتى * فألقى السحرة سجداً .. قالوا : آمنا برب هارون وموسى *
 قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟؟ انه لكبيركم الذي علمكم السحر .. فلا تقطن
 أيديكم ، وأزجلكم من خلاف .. ولأصلبنكم في جذوع النخل .. ولتعلمن أننا
 أشد عذاباً ، وأبقى * قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ، والذي
 فطرنا ، فأقض ما أنت قاض .. إنما تقضى هذه الحياة الدنيا .. فقد جاءهم
 الحق بصورة تشبه ما عندهم ، ولكنه بز ما عندهم ، وفاقه ، فعرفوه
 واستيقنوه ، وأذعن له من كان له بصراً بالأمور ..

وفي عهد عيسى ، حين كان الغالب عليهم ، والمعظم في صدورهم الطب ،
 جاءهم الحق في صورة تشبه ما عندهم ، ولكنها أعظم منه ، فقال ، جل من قائل :
 « ورسولا إلى بني إسرائيل : أنى قد جئكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من

الطين كهيئة الطير ، فانفخ فيه ، فيكون طيراً بأذن الله .. وأبرئ الأكمه ،
والأبرص ، وأحيى الموتى ، بأذن الله ، وانبتكم بما تأكلون ، وما تدخسون في
ميوثكم .. ان في ذلك لآية لكم ، ان كنتم مؤمنين .. فجاءهم الحق بصورة
تشبه ما عندهم ، وما يعظم في صدورهم ، ولكنه زاد عليه فعرفوه ، واستيقنوه ،
وأذن له منهم من سبقت له من الله عناية ..

ثم جاء عهد محمد ، فكان الغالب عليه ، والمعظم فيه ، قوة البيان ،
وفصاحة اللسان ، والعناية بأقناع العقول .. ولم تكن المعجزات في عهد
موسى ، وعيسى ، تهمل اقناع العقول ، ولكنها كانت تتجه ، في المكان الأول ،
لتبهر العيون ، وتسترهب العقول ، بالخوارق .. ولكن معجزة محمد كانت
تتجه ، في المكان الأول ، الى مخاطبة العقول ، لاقتناعها بالبيان المعجز ، في
شمول في العبارة ، وعمق في الإشارة ، ودقة في المعنى .. هو يقول (كذلك يبين
الله لكم آياته .. لعلكم تعقلون) .. ويقول (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم
تتفكرون) .. وكذلك كانت معجزة القرآن ، «البيان» .. ثم هو دعوة الى
الفكر ليس لها نظير .. قال تعالى : « في ذلك : » « وأنزلنا اليك الذكر ، لتبين
لناس ما نزلنا اليهم .. ولعلهم يتفكرون » فلأنه تعالى قد جعل الغرض من
ارساله رسوله ، ومن انزاله قرآنه ومن تفصيله تشريعه ، انما هو «الفكر» ..
ولكن هذا المستوى السامي من أغراض الدين لم يتحقق .. وهو لا يتحقق الا
في المرحلة العلمية منه التي تقوم على أصول القرآن .. وذلك لأن الفكر انما هو
سمة مرحلة «العلم» من الإسلام ، لا مرحلة «العقيدة» منه .. ولقد بينا أن
الإسلام قد جاء في مرحلتين لأمتين .. مرحلة «الايمان» لأمة المؤمنين ..
وهذه تقع في ثلاث مراتب : الاسلام ، والايمان ، والاحسان .. ولقد حواها
حديث جبريل المشهور .. ومرحلة «الايقان» لأمة المسلمين ، وهي أمة لم
تجئ الى اليوم ، وانما هي مقبلة .. وقد عناها النبي الكريم بحديث الأخوان
المشهور .. فانه قد قال : واشوقاه ، لأخواني الذين لما يأتوا بعد !! قالوا

أولسنا اخوانك ، يا رسول الله ؟! قال : بل أنتم أصحابي !! وأشوقاه لأخواني الذين لما يأتوا بعد !! قالوا : أو لسنا أخوانك ، يا رسول الله ؟! قال : بل أنتم أصحابي !! وأشوقاه لأخواني الذين لما يأتوا بعد !! قالوا : من اخوانك ، يا رسول الله ؟! قال قوم يجيئون في آخر الزمان ، للعامل منهم أجر سبعين منكم !! قالوا منا أم منهم ؟! قال : بل منكم !! قالوا : لماذا ؟! قال : لأنكم تجدون على الخير أعوانا ، ولا يجدون على الخير أعوانا !! وهذا الحديث الشريف مأخوذ من القرآن الكريم .. من قوله تعالى : ((هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ، وإن كانوا ، من قبل ، لفي ضلال مبين * وآخرين منهم ، لما يلحقوا بهم .. وهو العزيز الحكيم * ذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء .. والله ذو الفضل العظيم)) .. أشار الى الاخوان ، الذين لما يأتوا بعد ، بقوله ، ((وآخرين منهم ، لما يلحقوا بهم)) .. وجاء بقوله : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .. والله ذو الفضل العظيم » .. في مقام الرد على التساؤل ((لماذا ؟!)) الذي ورد الرد عليه في الحديث بقوله : « لأنكم تجدون على الخير أعوانا ، ولا يجدون على الخير أعواناً » ..

أمة المسلمين التي لما تأت بعد يكون دينها ذا سبع مراتب : ثلاث درجات « الإيمان » .. وثلاث مراتب « الأيقان » .. ثم تتوج هذه ست المراتب بمرتبة الإسلام .. وهذا هو الإسلام الذي عناه الله ، تبارك ، وتعالى ، حين قال : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه .. وهو في الاخرة من الخاسرين » .. ومراتب الأيقان ، التي لم ترد في حديث جبريل ، حواها القرآن .. وهي فوق مراتب الإيمان .. هي مراتب (علم) مراتب علم اليقين ، وعلم عين اليقين ، وعلم حق اليقين .. وهذه هي مستوى آيات الأصول ، التي كثيرا ما تحدثنا عنها ، في هذا الكتاب ، وفي غيره من كتبنا .. ولقد قصدنا ، بحديثنا المستفيض عن مرحلة « العلم » من الإسلام الى ان الإسلام

« علم نفس » .. فعلم النفس هو ما يحتاجه الانسان المعاصر كما سبق
أن بينا ..

يقول الله تعالى : « أن هذا القرآن يهـدى للتي هي أقوم ، ويبشر
المؤمنين ، الذين يعملون الصالحات : ان لهم أجراً كبيراً » .. ههنا الحديث
الأساسى عن مرحلة المسلمين ، وهؤلاء هم المهديون الى التي هي أقوم ..
والتي هي أقوم انما هي « النفس الكاملة » .. لأنها هي على جادة
الاستقامة .. وعندهما قال النبى الكريم شبيبتنى هود واخواتها ، انما عنى من
هود قوله : « فاستقم ، كما أمرت ، ومن تاب معك ، ولا تطغوا .. انه بما
تعملون بصير .. » والاستقامة هنا انما هي لزوم « العبودية » التي هي حد
العبد ، والطغيان هو الزيادة عن هذا الحد ، بدخول رائحة أدعاء « الربوبية » ،
التي هي آفة العبودية السرمدية ، والتي لا تنفك عنها على المدى .. ومنهاج
هداية المسلمين الى النفس الكاملة هو « علم النفس » ولقد تحدثنا ، بشئ من
التفصيل ، عن هذا فى مقدمة كتابنا « اسئلة واجوبة » .. الكتاب الاول ..

ومن أوضح ما فى هذا الباب ، من القرآن ، قوله ، تبارك ، وتعالى : « وكل
انسان الزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له ، يوم القيامة ، كتابا يلقاه منشورا *
اقرأ كتابك !! كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا * من اهتدى ، فانما يهتدى
لنفسه ، ومن ضل ، فانما يضل عليها .. ولا تزر وازرة وزر أخرى .. وما كنا
معذبين حتى نبعث رسولا » .. ونحب ان نلفت النظر الى التوكيد على الفردية
الوارد فى هذه الآيات الثلاث ..

وأما فى الآية السابقة فان المهـديين الى التي هي أقوم انما هم
« المسلمون » .. وأما « المؤمنون » فانهم مبشرون (بالجنة) قال : « ويبشر
المؤمنين ، الذين يعملون الصالحات : ان لهم أجراً كبيراً » .. وشتان بين
هؤلاء ، واولئك ..

وبالرجوع الى ما أسلفنا الإشارة اليه ، من ان المعجزة التي تظهر مع

الرسالات انما هي بسبيل مما يكبر في صدور الناس الذين أنزلت اليهم تلك
الرسالات ، نجد أن القرآن قد جاء في عهد البلاغة التي كانت كبيرة في صدور
العرب ، وعظيمة الوقع على نفوسهم ، جاء بالأعجاز في هذا الباب ، من شمول
العبارة ، ولطف الاشارة ، وفصل الخطاب ، ودقة المعنى .. هذا في استعماله
لأواني التعبير العربى - اللغة العربية ، ولطالما أشرنا الى ان القرآن ليس
اللغة العربية .. ونعنى بذلك : أن اللغة العربية لا تحمل كل معانيه ، انما
القرآن علم ، هو علم النفس البشرية التي اغتربت عن موطنها .. وهى الآن في
مسبيل الرجعى اليه .. والقرآن هو خط سيرها ، فى الصدور ، والورود .. وهو
أنما صب فى قوالب التعبير العربى ليكون منهاجاً لها ، به تتحقق لها الرجعى ..
قال تعالى ، عن حقيقة القرآن ، وعن مظهره : « حم * والكتاب المبين * انا
جعلناه قرآنا عربيا ، لعلمكم تعقلون * وانه ، فى أم الكتاب ، لدينا ، لعلى
حكيم » .. فالقرآن حقيقته .. فى أم الكتاب .. وأم الكتاب ، هنا ، هى
الذات الإلهية .. فانه ، عندما قال « لدينا » ، قد خرج بالصورة عن الزمان
والمكان ، فالحقت بالذات .. فهذه هى حقيقة القرآن .. ثم انه تنزل المنازل ،
حتى لقد طوعت أواني التعبير العربى لتحمل اكبر قدر من هذا الإطلاق ..
والحكمة فى ذلك هى أن نفهم نحن : « انا جعلناه قرآنا عربياً ، لعلمكم
تعقلون » .. وتطويع أواني التعبير العربى لتحمل هذا الفيض الزاخر من
العلم ، هو اعجاز التعبير ، الذى ووجه به العرب ، فلم يستطيعوا ان ينهضوا
لتحديه ، فأذعنوا له ، واستيقنته نفوسهم ، وآمن له منهم من سبقت له من
الله العناية ..

ولكن التعبير باللغة العربية انما هو ظاهر القرآن .. وللقرآن ظاهر ،
وباطن ، وله حد ، ومطلع .. ولقد تحدثنا عن كل اولئك فى كتابنا : « اسئلة
واجوبة » .. ويكفى أن نقول هنا : أن ظاهره هو بمثابة آيات الآفاق .. وان
باطنه هو آيات النفوس .. والى ذلك الاشارة بقوله تعالى : « سنريهم آياتنا ،

في الافاق ، وفي انفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق .. أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ٢٢ » وكل باطن من القرآن داخله باطن .. ولا تنتهي الصور ، على الاطلاق .. لأن نهايتها في الاطلاق — في الذات الالهية — وحين كانت معجزة الرسالة الاولى من الاسلام هي بلاغة القرآن ، فان معجزة الرسالة الثانية من الاسلام هي « علمية » القرآن .. فان هذا العصر الحاضر هو عصر العلم .. العلم المادى التجريبي .. هذا هو أعظم شيء في صدور الناس الآن ، وسيجىء الحق ، في الرسالة الثانية من الاسلام بصورة تشبه هذا العلم ، ولكنها تبرزه ، وتتفوق عليه .. وسيذعنون لها ، وستستيقننها نفوسهم ، وسينقادون لها .. لا يشذ عنها شاذ ، ولا يعصى امرها عاص .. يقول تعالى في ذلك : « طسم * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين * ان نشأ ننزل عليهم ، من السماء ، آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » .. وهذه الآية انما هي بيان الكتاب المبين المطبوع في آية (طسم) هذه .. وهذه هي مهمة الرسالة الثانية من الاسلام .. هذا مجال التفاوت في فردياتها .. تلك الفرديات التي تنشأ على أديم مجتمع تحكم علائق أفراده الشريعة التي تقوم على اصول القرآن ..

ان « شريعة الأحوال الشخصية » هي أهم شريعة في الاسلام ، بعد شريعة العبادات .. ولقد حاولنا ، في مضمار الحديث عنها ، أن نشقق الحديث عن أصل أصول الدين ، لأنها هي من أكبر مجالى ، ومجالات ، هذه الاصول الأصلية ..

وصيتى للرجال ..

* اعلّموا : ان الصورة التي تعرض نفسها دائماً على الأذهان ، عند الحديث عن حقوق المرأة ، تلك الصورة التي تجعل الرجل والمرأة ضدين ، لبعضهما البعض ، يتنازعان حقاً بينهما ، في خصومة ، ولحد ، فاذا كسب أحدهما خسر الآخر ، هذه الصورة شائنة ، وخاطئة .. ان قضية المرأة ليست

ضد الرجل ، وانما هي ضد الجهل ، والتخلف ، والظلم الموروث .. وهى ، من
 ثم ، قضية الرجل والمرأة معاً .. ولتعلموا : ان صراعنا دائما انما هو ضد
 النقص ، ابتغاء الكمال .. والكمال انما هو حظ الرجل ، وحظ المرأة في
 آن معاً .. فان الفرد الكامل ، انما هو الابن الشرعى للمجتمع الكامل .. وهو ،
 اكثر من هذا ، الابن الشرعى للمرأة الكاملة .. يقول العارفون : ان الصلاح
 « امرأة » .. ويريدون بذلك ان يقولوا : ان المرأة الصالحة اذا تزوجها الرجل
 الصالح ، او تزوجها الرجل الطيب ، كريم الاخلاق ، سقى اليد ، حسن الدين ،
 فانها تنجب ابنا صالحا .. ولكن الرجل الصالح اذا تزوج امرأة مردولة ،
 دنيئة النشأة ، رقيقة الدين ، كزة النفس ، فانه لا ينجب الا ابناء فاسدين ،
 رقيقى الدين ، سيئى الخلق .. وذلك امر مفهوم ، ومقدر ، واسبابه
 واضحة .. فان الولد ، انما هو ، من الناحية العضوية ، يكاد يكون كله من
 المرأة .. هو من عظمها ، ودمها ، ولحمها .. فهي تعطيه في احشائها ، كل
 تكوينه الجسمانى .. ثم هى ، اذا برز من احشائها ، تعطيه ، من كيانها ، كل
 غذائه ، تقريبا ، الى ان يغظم .. هذا من الناحية العضوية واما من الناحية
 الروحية فان حالتها النفسية ، ومزاجها ، يؤثران عليه ، وهو جنين ، ثم يؤثران
 عليه ، وهو رضيع ، ثم يؤثران عليه ، وهو طفل يشرب في مدارج اليقاعة ،
 تائرا يكاد يكون كاملا .. ويكفى انه ، عندما تفتح عيناه لأول مرة ، انما
 تفتحان عليها هى .. فيلجح وجهه دفء انفاسها ، وتمس جلده نعومة اناملها ،
 وتستقر في أعماق عقله نظراتها الحنية ، ويطررق اذنيه عذب مناجاتها ،
 ومناغاتها .. وبالاختصار ، فهو يأخذ منها كل مزاجه ، وكل تكوينه ،
 الجسمانى ، والروحى ، والخلقى ، والفكرى ، ثم هو لا يكون سعيه ، فيما
 بعد ، بين الناس ، الا متأثرا ، متأثرا كاملا ، بكل هذا التكوين المبكر .. ثم ان
 احدها ، في جميع اطوار حياته ، محاط بالمرأة ، من جميع اقطاره .. فهي
 الزوجة ، وهى ، قبل ذلك ، الأم ، وهى ، بعد ذلك ، الأخت ، والبنت ..

ثم انها هي تحت جلدنا وفي اهابنا .. ليست نفس احدنا امرأة ؟؟ بلى !! فان
احدنا ، من رجل او امرأة ، انما هو نتاج مشترك للقاء الذكر بالانثى .. ففي
كل رجل حظ من الانوثة .. وفي كل ادرأة حظ من الذكورة .. والسعى في
مراتب الكمال ، للرجل ان يتخلص من هذا الخلط المشوش ، حتى يكون كامل
الرجولة .. وللدرأة ان تتخلص من هذا الخلط المشوش ، أيضا ، حتى تكون
كاملة الانوثة .. فان الرجل ، كامل الرجولة لم يجرى بعد .. والمرأة كاملة
الانوثة لم تجيء بعد .. وانما هما مقبلان ، على التحقيق ، وذلك بفضل الله ،
و « الله ذو الفضل العظيم » .. اننا نحن الآن نعاشر نقص بعضنا بعضا ..
فالنساء يعايشن ، ويعاشرن نقص رجالهن .. والرجال يعايشون ، ويعاشرون
نقص نسائهم .. حتى انه لحق ان المباشرة الجنسية بين الرجل وزوجته انما
هي مؤوغة بالنقص لانها انما هي ، في المرحلة الحاضرة من مراحل نمونا ، التقاء
بين نقصنا ، نحن الرجال ، ونقص نسائنا .. فلكأننا نباشر الرجال في النساء ،
من دون النساء ، والى هذا ، وفي هذا المستوى ، اللطيف ، الدقيق ، تشهير
الاية ، في حق قوم لوط : « انكم لتلتقون الرجال ، شهوة ، من دون النساء ..
بل انتم قوم تجهلون » فلكأننا ، في هذه المرحلة من نمونا ، وتطورنا ، نحو
الكمال المرتقب ، حين نعاشر زوجاتنا ، الفضليات المعاصرة الجنسية ، النظيفة ،
الانسانية ، الرفيعة ، انما يعاشر نقصنا نقصهن .. وهذا هو السبب في قلة
السعادة الزوجية الحاضرة حتى ان كل الزوجات ، بعد الأيام القلائل الاولى ،
التي تسمى ، بالتعبير العصري ، « شهر العسل » لا تكاد تقوم الا على المجاملة ،
والاحتمال ، والعرض .. لا الحب .. والعامه عندنا تقول : « الزواج اوله
رغبة وآخره عرض » وقد يظن بعض الناس ان ما يقتل الحب بين الزوجين
انما هو مشاكل الحياة المادية ، ومسئولية الكسب ، والاعالة ، وتدبير المعاش
للأسرة .. والحق ان هذا نتيجة ، وليس سببا ، وانما السبب هو التناثر الذي
ينشا عندما يلتقى نقص الرجال ، بنقص النساء .. وما هذا النقص الا

الانقسام الداخلى ، والتشويش الداخلى ، الناشئ من قصورنا المباشر .. ذلك القصور الذى سببه التقاء الانوثة والذكورة فى ابوينا ، فجاءت المرأة خليطا من الانوثة والذكورة ، ولكن حظ الانوثة فيها اكبر .. وجاء الرجل خليطا من الذكورة والانوثة ولكن حظ الذكورة فيه اكبر من حظ الانوثة .. فلا الانثى انثى كاملة .. ولا الذكر ذكر كامل .. وانما قيمة التوحيد — كلمة « لا اله الا الله » ، لنا ان تحقق لنا هذه التصفية ، والتقوية ، فتتم وحدتنا فى بنيتنا بان يجيء الرجل كامل الرجولة .. وتجيء المرأة كاملة الانوثة — هذا هو كمال الرجال وكمال النساء — الرجل كامل الرجولة ، والمرأة كاملة الانوثة — فاذا جاء هذا الطور من اطوار نمونا فان السعادة تتحقق بالزواج بصورة هى « ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .. وهذا الطور ينتظرنا وسبيلنا اليه هو القرآن .. على ان يقوم تشريعنا الجماعى ، والفردى ، على اصوله لا على فروعه ..

* اعينوا النساء على الخروج من مرحلة القصور ، ليستأهلهن حقهن الكامل فى المسئولية ، حتى تنهض المرأة ، وتتصرف كإنسان ، لا كإنثى ..

* غاروا على النساء .. ولا يكن مصدر غير تكلم الشعور بالامتلاك ، كما هى الحالة الحاضرة .. ولكن غاروا على الطهر ، وعلى العفة ، وعلى التصون ، لدى جميع النساء .. وسيكون من دوافع مثل هذه الفيرة ان تعفوا ، انتم انفسكم ، فانه وارد فى الحديث : « عفوا تعف نساؤكم » ..

* تسلطوا على النساء !! ولكن لا يكن تسلطكم عليهن عن طريق الوصاية ، ولا عن طريق القوة ، ولا عن طريق الاستعلاء — استعلاء الذى ينظر من اعلى الى ادنى — ولكن تسلطوا عليهن عن طريق الحب .. احبوهن ، وتعلقوا بالكارم ، والشمائل ، والرجولة ، التى تجعلكم محبوبين لديهن .. فان المرأة اذا احبت بذلت حياتها فداء لمن تحب .. فليكن

هذا طريقكم الى « استغلالهن » ..

وصيتى للنساء .

- * اعلمن ان الفيرة الجنسية هي من اكبر اسباب تسلط الرجال على النساء .. وسقطل غيرة الرجال على النساء قائمة .. ومن الخير ان تظل قائمة ، لانها هي صمام العفة ، وضمانها . والعفة اعظم مزايا النساء ، على الاطلاق .. وما جعلت قوامه الرجل على المرأة الا من أجلها ، في المكان الاول .. فكن عفيفات ، صينات ، تكن لكن القوامه على انفسكن
- * أسفرن ، ولا تبرجن .. فان التبرج دليل على خفة العقل ، ورقة الدين ، وموه الخلق .. ولا تستحق المتبرجة ان تتمتع بحرية السفور .. يتناول تمالي ، في ذلك : « واللاتى ياتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن اربعة منكم .. فان شهدوا ، فامسكوهن في البيوت ، حتى يتوفاهن الموت ، أو يجعل الله لهن سبيلا .. » ففي هذه الآية اذن بالسفور ان تحسن التصرف في حرية السفور .. وفيها ادر بمصادرة حرية من تنسئ التصرف في السفور .. كأن تكون متبرجة بالثياب المخالفة ، أو بالمظهر الذى تستعرض به انوثتها أمام الرجال ..
- * وحين كانت ارفع شمائل النساء العفة ، فان ارفع عنهن حسن التبعل .. وليس لحسن التبعل حد ينتهى عنده التجويد .. فلتعلم ابداكن انها في بيتها ملكة ، وليست خادمة .. وهى لن تعطى هذا الحق ، وانما هى تاخذه بحسن تدبيرها لمملكتها من جميع الوجوه ..
- * اعلمن ان جمالكن ، في المكان الاول ، ليس في جمال اجسامكن ، وانما هو في كمال عقولكن ، وخلقكن ، ودينكن .. فكن عوالات على هذه .. ولتطالع هذه الكمالات منكن من تلقين من الرجال من الوهلة الاولى للقاءكن بهم ..
- * اعلمن ان كرامة احداكن بيدها .. فان هانت عليها كرامتها ، فلن تجد

مكرما ، لا من الزوج ، ولا من الأخ ، ولا من الأب .. قال شاعرهم :—
إذا انت لم تعرف لنفسك حقها * هواناً بها كانت على الناس أهون
وقال الآخر :—

من يهن يسهل الهوان * عليه ما لجرح بميت ايلام ..
وصيتى للرجال والنساء معا ..

* اعلّموا ان الوحدة « الاجتماعية » ليست الفرد ، من رجل أو امرأة ،
وانما هي الزوج من رجل وامرأة .. فانه لا مفاوز الحياة ، ولا مراحل
السلوك ، تقطع بخير من التعاون ، والتساند ، والحب المتبادل ، بين
شطري هذه الوحدة .. وفي هذا ، فان المرأة لها جماع آيات الآفاق
للرجل .. وان الرجل لهو جماع آيات الآفاق للمرأة .. والله تعالى
يقول ، في آيات الآفاق : « سنريهم آياتنا ، في الآفاق ، وفي أنفسهم ، حتى
يتبين لهم انه الحق .. أولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد ؟ » ..
وفي التواشج ، بين طرفي هذه الوحدة يقول تعالى : « فاستجاب
لهم ربهم : انى لا اضيع عمل عامل منكم ، من ذكر أو انثى ، بعضهم ممن
بعض » .. ويقول المعصوم : « النساء شقائق الرجال » .. فكانه قال : ان كل
شقي لا يكون الوحدة وحده ، وانما بالتئامه مع شقيقه .. فليعرف كل واحد
منكم لصاحبه مكانه هذا ..
وعدد ..

كنا قد أخرجنا للناس في اول هذا العام كتيباً باسم : « خطوه نحو الزواج
في الاسلام » يقترح حلاً لازمة الزواج الحاضرة ، مستمداً من الشريعة
الاسلامية السلفية ببعث بعض صورها المهجورة .. ولقد وعدنا يومئذ باخراج
كتابنا هذا الذى بين يدي القارىء وهو « تطوير شريعة الاحوال الشخصية »
وها نحن ، بفضل الله ، وبتوفيقه ، قد وفينا بهذا الوعد .. وندخل بهذا في وعد
جديد نقطعه على أنفسنا ، ونلتمس من الله العون على الوفاء به .. ذلك الوعد

هو اخراج كتيب في حجم كتيب « خطوة نحو الزواج في الاسلام » يكون اسمه : — « الزواج في الاسلام » . . . تقوم مراسيمه على الشريعة المطورة ، على هدى اصول الدين ، ولن يكون ذلك الكتاب خاصا بملة دون ملة ، وانما سيكون صورة يتوافق عليها الرضا من جميع الملل . . . ذلك بانها حين تقوم على اصول الدين انما تقوم على المحتوى الانسانى الذى يتسامى على العقيدة ، وينعقد على الاصول التى تلتقى فيها الانسانية الرفيعة ، من حيث انها انسانية ، بصرف النظر عن مللها ، ونحلها ، والوانها ، والسنتها ، واقالييمها . . . وتلك هى مزية الاسلام . . . ولنا نبتغى شيئا ، فيما نأتى وما ندع ، ما نبتغى ابراز هذه المزية . . . فانه قد انى للانسانية الضاربة فى التيه ، ان تستظل بظل الاسلام الورىف . . .
وعند الله نلتمس التسديد . . . وعليه التكلان . . .

أحمد رمان — السودان
نوفمبر ١٣٩١ — ديسمبر ١٩٧١

هذا الكتاب

« ان هذا الكتاب نحرجه عن تطوير شريعة الاحواز المتحصنه ، وهو كتاب جديد في بابيه ، ذلك بانه يتناول الشريعة السلفية بالتطوير ، غير تقع بها من نص كان عمدها في القرن السابع حين نزل القرآن ، وسرع الشريعة ، الى نص اعتبر ، يومئذ مرجحا الى وقته ، لانه اكرم من ذلك الوقت .. »

هذا الكتاب

« قيمة التوحيد — كلمة « لا اله الا الله » لنا ان نحقق لنا هذه النصفية ، والنصفية ، فتم وحدتنا في بيئنا بان يحيى الرجل كامل الرجولة .. وتجيء المرأة كاملة الانوثة — هذا هو كمال الرجال وكمال النساء — فاذا جاء هذا الطور من اطوار سموا فان السعادة تتحقق بالزواج بصورة هي « مالا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. »

هذا الكتاب

« تحاروا على النساء ، ولا تكن مصدر غيركم الشعور بالامتلاك ، كما هي الحالة الحاضرة .. ولكن غاروا على الطهر ، وعلى العفة ، وعلى التصون ، لدى جميع النساء .. وسيكون من بواقع مثل هذه الغيرة ان تغفوا انتم انفسكم ، فانه وارد في الحديث : « عفوا تعف نساؤكم .. »

هذا الكتاب

اعلمن ان جمالكن ، في المكان الاول ، ليس في جمال اجسامكن ، وانما هو في كمال عقولكن وخلقكن ، ودينكن .. فكن عوالات على هذه .. »
« اعلمن ان كرامة احداكن بيدها .. فان هانت عليها كرامتها ، فلن تجد مكرما ، لا من الزوج ولا من الاخ ، ولا من الاب .. »